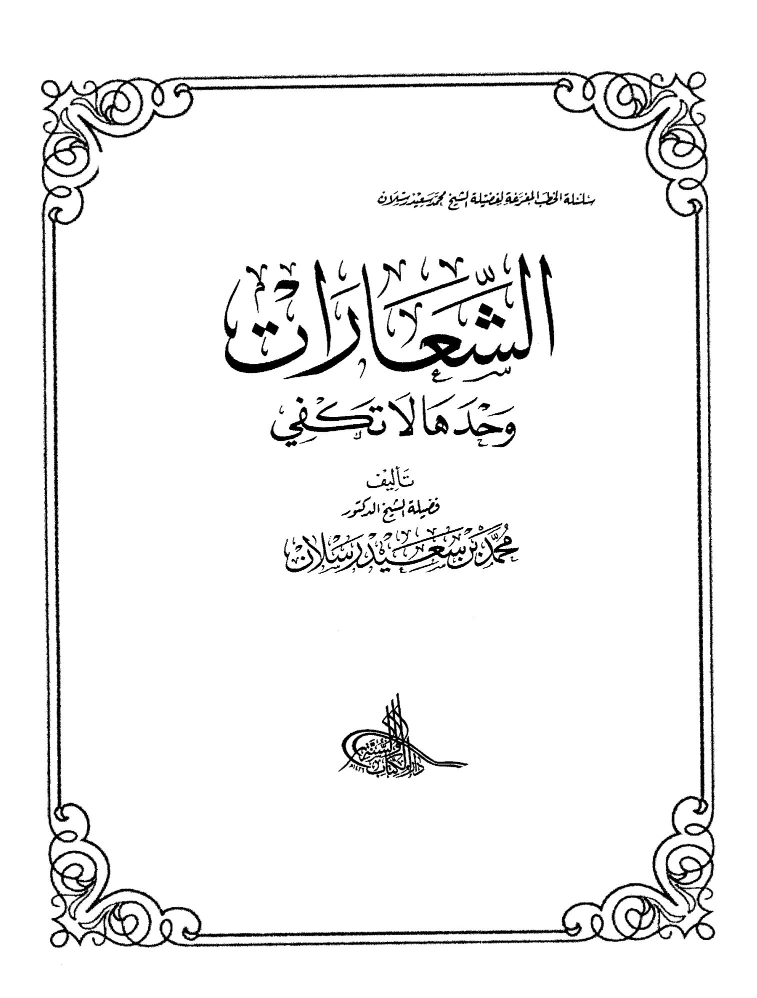


سلسلة الخطب المفرغة لفضيلة الشيخ محمد سعيد رسلان

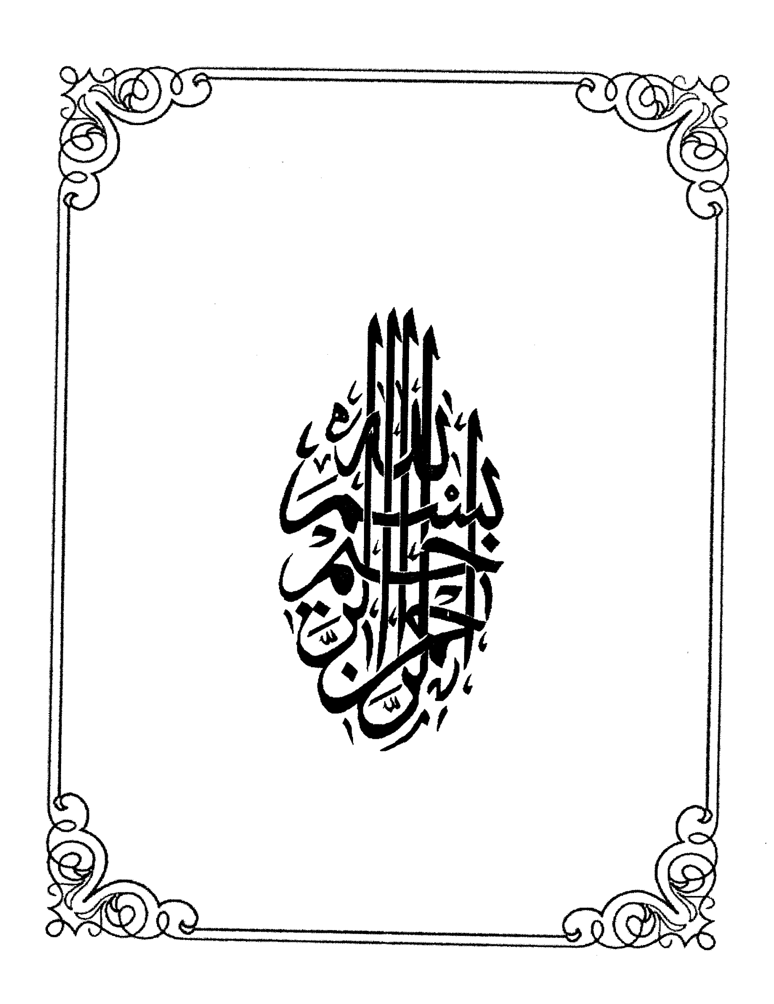
الشعارات

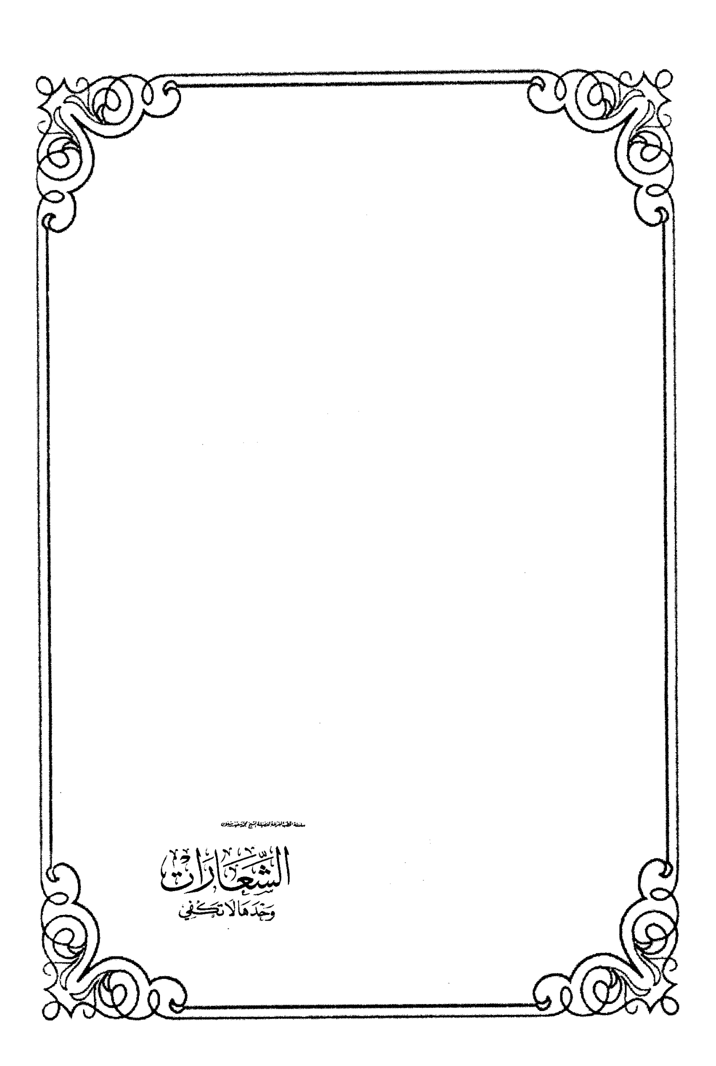
وحدها لا تكفي

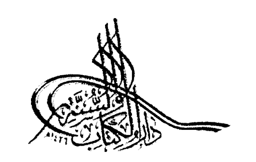
تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن سعيد رسلان


بسم الله الرحمن الرحيم


الشعارات
وحدها لا تكفي



الطبعة الأولي ٢٠٠٧/٢/١٩

لـ دار الكتاب والسنة

رقم الايداع بهيئة الكتب والوثائق القومية

٢٠٠٧/٨٨٩٢

دار الكتاب والسنة

للطباعة والنشر والتوزيع

عين شمس الشرقية – القاهرة جمهورية مصر العربية .

جوال :٠١٠٤٦٧١٤٣٩ – ٠١٠١٠٢١١٨٧

موقعنا علي الإنترنت

www.dar-ketabsunah.com

للتواصل عبر الماسنجر

Dar_alktabwalsunnah@hotmail.com

Dar_alktabwalsunnah@yahoo.com

البريد الإلكتروني

marketing@dar-ketabsunah.com

إدارة التسويق

production@dar-ketabsunah.com

إدارة الإنتاج

Admin@dar-ketabsunah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ وحْدَه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَه:

أما بَعْدُ:

فهَذِهِ خُطْبَةٌ فِي أمرٍ جامعٍ مُهمٍّ، وأصْلٍ عظيمٍ مِن أُصول دينِ الإسلام العظيم، وفيهَا وَصْفُ خُرُوجِ الأُمَّةِ مِن المِحْنَةِ بِهَدْي الكِتَابِ والسُّنَّة، بِفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ.

وقَدْ أُلْقِيَتْ هَذِهِ الخُطْبَةُ بِفَضْلِ اللهِ ومِنَّتِهِ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلَهِ وَقُوَّتِهِ، فِي المَسْجِدِ الشَّرْقي في سُبْك الأَحَدِ، يَومَ الجُمُعَةِ، المُوافِقِ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَى السادِسِ مِن شَهْرِ مَايو، لسنةِ خَمْسٍ وَأَلْفَيْن مِن مِيلادِ عبدِ اللهِ وَرَسُولِهِ وكَلِمَتِهِ ألقاهَا إلى مَريَمَ وَرُوحٍ مِنْه، المسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ، صَلَى اللهُ تَعَالَى على نبيِّنَا وَعَلَيه وسَلَّم؛ الموافق السَّابع والعشرينَ من رَبيعِ الأوّلِ، لسنةِ ستٍّ وعشرينَ وأربعمئةٍ وألفٍ من هجرة النبيِّ ﷺ.

وقدْ قَامَ أخي الفاضلُ الشيخ: طه عَبدُ المقْصُودِ عبدُ الحميدِ عُبَيّة - المدرس بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة- بتخريجِ أحادِيثِها، وَتَرْجَمَةِ الأعلامِ الواردةِ فيها، وَضَبْطِ ما أَشْكَلَ مِنْ ألفاظِهَا، مَع بَيانِ غريبِهَا، فجَزاه اللهُ خَيْرًا، وتقبَّلَ اللهُ مِنَّا ومِنْهُ صَالِحَ الأَعْمَالِ، ونسألُ اللهَ أنْ يَنْفَعَ بِهَا المسلمينَ فِي مَشَارِقِ الأَرَضِ وَمَغَارِبِهَا، إنَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

وصلَّى اللهُ عَلَى نبيِّنا محمدٍ، وعَلَى أَبَوَيْهِ إبراهيمَ وإسماعيلَ، وسائرِ الأنبياءِ والمُرْسَلِين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. وآخِرُ دَعْوَانا أنِ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين

وكتب:

أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان

عفا الله عنه وعن والديه



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُه، ونستَعِينُه، ونستَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرُورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هادِيَ لهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وحده لا شريكَ لهُ وأَشْهَدُ أنَّ محمدًا عَبْدُهُ ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أَصدَقَ الحديثِ كِتابُ اللهِ تعالى، وخَيْرَ الهَدْيِ، هَدْيُ محمدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحْدثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

أما بعد:

فَأَنْ تكونَ في المكانِ الصحيحِ وحدهُ لا يكفِي، ولكنْ ينبغي أنْ تتحرَّكَ في المكانِ الصحيحِ حركةً صحيحةً. الشعارُ الصحيحُ وحدَهُ لا يكفي،

وإنّمَا ينبغي أنْ يُضَمَّ إلى ذلكَ أمرٌ آخَرُ؛ وهو أنْ تكونَ الحركةُ تحت لواءٍ صحيحٍ حركةً صحيحة.

وقد أَخْبَرَنَا اللهُ ربُّ العالمينَ في كتابِه العظيم بهذا الأمر الجليل، فقالَ جَلَّتْ قدرتُهُ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ فكانَ في المكانِ الصحيحِ، بالإخلاصِ للهِ ربِّ العالمين.

ثُمَّ يَضُمُّ اللهُ ربُّ العالمينَ إلى هذَا الشرطِ الكبيرِ أمرًا آخر: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

فالأوَّل: تجريدُ التوحيدِ للهِ؛ بإخلاصِ القلبِ للهِ ربِّ العالمينَ.

والثاني: تجريدُ المتابعة للنبيِّ الأمين ﷺ، من غيرِ ما تخلُّفٍ ولا تَوَانٍ[١].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية المذكورة: قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، ... ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: اتبع فيه الرسولَ ﷺ؛ فإن للعمل المتقبَّل شرطين؛ أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده. والآخر: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة. فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُتقبَّل، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ**» (رواه مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها-) فعملُ الرهبان ومن شابههم - وإن فُرض أنهم مخلصون فيه لله - فإنه لا يُتقبَّل منهم، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى كافة الناس، وفيهم وفي أمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. «وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصدَ لله فهو أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] (انتهى ملخصًا من تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١٥٤-١٥٥ط: المكتبة التوفيقية، القاهرة).

الشعارُ الصحيحُ وحدَهُ لا يكفي، وإنَّمَا ينبغي أنْ يُضَمَّ إلى ذَلِكَ متابعةٌ صحيحةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ.

ولو كان هذا الشرطُ الثاني غيرَ ذي قيمةٍ لَمَا تركَ الله ربُّ العالمينَ خيرَ أهلِ الأرضِ يُعانُونَ الكَسْرةَ من بعدِ ما جاءت الفَوْرَةُ، ليؤدِّبَهُمُ الله ربُّ العالمينَ في أنفسهم، وليضربَ بِهِمْ للخَلْقِ من بعدِهم مثلًا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ في «**غَزوةِ أُحُدٍ**» مع أصحابهِ - رضي الله عنهم - كانُوا على الإخلاصِ الحقِّ، وكانُوا خيرَ أهلِ الأرضِ في ذلكَ الوقتِ، وسيظلُّون كذلكَ بفضلِ اللهِ ربِّ العالمينَ، إلى أنْ يَرِثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها . . . الإخلاصُ معهم، والصدقُ رائدُهم، وهم في معسكرٍ، في مكانٍ صحيح، ليسَ فيهِ لَبْسٌ ولا خَفَاءٌ، ولا غموض؛ لأنَّ الموقع المقابلَ كان منطويًا على الكُفْرِ، وظاهرًا بالشِّرْك، وتحت رايةِ الجاهليةِ؛ راية الشيطان الرجيم. فهذا وضوحٌ كاملٌ، إلَّا أنَّهُ لم يُغْنِ عنهم شيئًا لمَّا خَالفوا في المتابعةِ رسولَ الله ﷺ.

رايةُ النبيِّ ﷺ، رايةُ الإسلامِ، تَخْفِقُ في «أُحُدٍ» على هاماتٍ، هي خيرُ هاماتِ البشرِ، وفيهم النبيُّ الخَاتَمُ ﷺ. فهلْ بعدَ هَذا مِن وضوحٍ؟ . . . أنْ تكونَ في المكانِ الصحيح، تحتَ الرايَةِ الصحيحة والشعارِ الصحيح، . . . هذا وحَدَهُ لا يكفي، حتَّى تكونَ مُتابِعًا لخيرِ البَرِيَّة ﷺ، وإلَّا فَقُل لِي بِرَبِّك: لِمَ تركَ الله ربُّ العالمينَ المسلمينَ تحتَ قيادةِ النبيِّ الأمينِ ينكشفون ظاهراً، ويُسْتَشْهَدُ منهم مَنْ يُسْتَشْهَدُ؟ حتى إنهم لمَّا أدارُوا الأمرَ في رءوسِهم، وأجالوُهُ في عقولِهم، وَجَدُوه يحتاجُ إلى توضيح وبيانٍ، فأنزل الله ربُّ العالمينَ توضيحًا وبيانًا:

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

لقد أمَرَهم النبيُّ ﷺ أنْ يظلَّ الرماةُ منهم على الجبلِ، ولا يَبْرَحُوا مهما حدث، ولو رأوا المشركينَ يركبونَ أكتافَ الصحابة الآمنينَ رضوانُ الله عليهم أجمعين. وقد جاءَ مِن اللهِ النصرُ في الوَهْلَةِ الأولى، وركبَ المسلمونَ أكتافَ المشركينَ، وعَلَا أمرُ اللهِ ربِّ العالمينَ غالِبًا، ثم خالفُوا أمرَ محمدٍ ﷺ، وهم تحتَ الشعارِ الصحيح، لا يَرُومُونَ عنهُ حِيادًا ولا حَيْدةً، وإنَّما يلتزمونَ بموقعِهم، وهو الموقعُ الصحيحُ. ولكنْ أيْنَ المتابعةُ؟... فلمَّا خالفُوا أمرَ الرسولِ ﷺ انكشفُوا وأَدْبَروا(١)؛ لأنَّه

(١) روى البخاري رحمه الله في كتاب المغازي من صحيحه، باب «غزوة أُحُد» (رقم ٤٠٤٣) [الفتح ٧/ ٤٠٥]، وفي كتاب الجهاد، باب: «ما يُكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه» (رقم ٣٠٣٩) [الفتح ٦/ ١٨٨]، وكتاب التفسير، باب ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ (رقم ٤٥٦١) [الفتح: ٨/ ٧٥] عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - في قصة الرُّماة في غزوة أُحُد - قال: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلسَ النبيُّ ﷺ جيشًا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبدَ الله «وفي رواية: جعل النبي ﷺ على الرجَّالة يوم أُحُد - وكانوا خمسين رجلًا - عبدالله بن جُبير» وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، لا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينُونا «وفي رواية: إن رأيتمونا تَخَطَّفَنا الطيرُ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسلَ إليكم وإن رأيتمونا هَزَمْنَا القومَ وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم» فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددْنَ في الجبل (أي: نساء المشركين يُسْرِعْنَ المشي)، رفعن عن سُوقهنّ، قد بَدَتْ خَلاخِلُهُنّ. فأخذوا يقولون: (أي: الرماة المسلمين الذين أمرهم النبي ﷺ بالوقوف على الجبل): الغنيمةَ، الغنيمةَ.» وفي رواية: فقال أصحابُ ابن جُبير: الغنيمةَ، أي قوم، الغنيمةَ ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟». فقال عبد الله: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا. فأَبَوْا «وفي رواية: قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينَّ الناسَ=

أن تكونَ تحتَ الرايةِ الصحيحة والشعارِ الصحيح، فهذا وحدَهُ لا يكفي، وإنَّمَا لابُدَّ أنْ تكون تحتَ الرايةِ الصحيحة متحرِّكًا حركةً صحيحةً؛ بتجريدِ المتابعةِ للنبيِّ ﷺ، وإلَّا فالمثلُ المضروبُ هاهنا: استُشْهِدَ منهم سبعونَ رضوانُ الله عليهم أجمعينَ، وكانُوا في «بدرٍ» قد قَتَلُوا من المشركين سبعينَ وأَسَرُوا سبعينَ، فنزَّل الله ربُّ العالمينَ المأسورين منذلةَ المقتولينَ، وأنزلَ الله ربُّ العالمينَ عليهم بيانَ الأمرِ وتجليةَ الحقيقةِ: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾، فقُتِل منكم سبعونَ (أي في أُحُدٍ)، وقَتَلْتُم قبلَ ذلك سبعينَ وأَسَرْتم سبعين. . . ، ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ . . . ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، يعني: كيفَ يقعُ هذا ونحنُ تحتَ الشعارِ الصحيح، وتحت الراية الصحيحة، وفي المكان الصحيح؟ . . . ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾؛ أي: لأنكم خالفتم نبيَّكم ﷺ[1].

= فَلَنُصيبَنَّ من الغنيمةِ» فلما أبوا صُرفتْ وُجُوهُهم (أي: تحيروا لا يَدْرون أين يتوجهون) فأصيب سبعون قتيلًا، «وفي رواية: فلما أتوهم صُرفتْ وجوُههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك: إذْ يدعوهم الرسولُ في أُخراهم. فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلًا». وأخرج الطبريُّ - من طريق السُّدّي- قال: قال النبي ﷺ للرماة: «**إنَّا لن نزالَ غالبين ما ثبتُّم مكانكم**». وكان أول من برز (أي من المشركين) طلحة بن عثمان، فقُتل. ثم حمل المسلمون على المشركين، فهزموهم، وحمل خالد بن الوليد- وكان في خيل المشركين - على الرمُاة، فرموه بالنَّبْل، فانقمع. ثم ترك الرماة مكانهم، ودخلوا العسكر في طلب الغنيمة، فصاح خالد في خيله، فقتل من بقي من الرماة، منهم أميرهم - عبد الله بن جُبير. ولما رأى المشركون خيلَهم ظاهرة تراجعوا، فشدُّوا على المسلمين فهزموهم، وأثخنوا فيهم القتل» (ذكره ابن حجر في الفتح مختصرًا ٧/ ٤٠٣ -. ٤٠٤ وانظر: رواية الطبري كاملة في تاريخه ج٢ ص٥٠٩-٥١٠ ط دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة).

(١) عقد ابن القيم- رحمه الله- فصلًا فريدًا وبحثًا نفيسًا في «زاد المعاد» (ج٣ ص٢١٨-٢٤١) ضَمَّنه جانبًا من الفوائد والحكَم الربانية المستفادة من أحداث =

يقول الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾إخلاصٌ بتجريد التوحيد للهِ ربِّ العالمينَ.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ بتجريدِ المتابعةِ للنبيِّ الأمين ﷺ.

وإذًا، فكلُّ رايةٍ مرفوعةٍ بشعارٍ صحيحٍ لابُدَّ من فحصِ الحالِ تحتَها، أَهُوَ متابعٌ للرسولِ ﷺ، أمْ لا؟ فإنْ كانَ فَبِهَا ونِعْمَتُ عَيْنٍ، وإلَّا فألقِهَا «**حيثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ**»[1].

واللهُ ربُّ العالمينَ أكملَ لنا الدِّينَ وأتمَّ علينَا النعمةَ، فليسَ هنالِكَ من نقصانٍ في دينِ اللهِ ربِّ العالمينَ يحتاجُ إكمالًا ولا تمامًا، بَلْ إنَّ اللهَ ربَّ العالمينَ جَعَلَ مِن خصائصِ هذا الدِّين - بعد الرَّبانيَّة والشموخ -: الكمالَ والتمامَ، وجعل اللهُ ربُّ العالمينَ خِصِّيصةً عظيمةً لهذا الدينِ العظيمِ؛ هي خِصِّيصةُ «الشمولِ»، وما كانَ النبيُّ ﷺ ليبيِّنَ للناسِ كيفَ

= غزوة أُحُد، فذكر منها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشُؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ﷺ وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة وتحرُّزًا من أسباب الخذلان». وراجع بقية الفوائد والحِكَم، فإنها مهمة للغاية. وقد اختصرها ابن حجر رحمه الله في [الفتح ج٧، ص٤٠٢، ٤٠٩].

(١) «اقتباس من بيتٍ لزُهير بن أبي سُلْمى، من مُعلَّقته الشهيرة، وهو من الشعراء الجاهليين، وتمام البيت (من بحر الطويل) - وهو مرتبط بثلاثة أبيات قبله -:

فَشَدَّ فلم يُفزِعْ بُيُوتًا كثيرةً ... لَدَى حيثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

والمراد بـ «أم قَشْعَمِ» الحرب. وقيل: المنِيَّة. وقيل: الضَّبُع. وقيل: الذِّلَّة (راجع: لسان العرب: قشعم).

يقضِي الواحدُ منهم حاجَتَهُ ثمَّ يَدَعَهُمْ بعدَ ذلكَ يتلدَّدونَ حَيَارَى[١] في دنيا اللهِ ربِّ العالمين، يحتاجونَ البرهانَ فلا يجدونَه، ويتلمَّسونَ السبيلَ فيفقدونَه، وإنَّما بَيَّن اللهُ ربُّ العالمينَ لنا ذلكَ في كتابه العظيم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذٍ دِينًا فلن يكونَ يومًا من الأيَّام دِينًا[٢].

بَلْ إنَّ اللهَ ربَّ العالمينَ أخْبَرَنَا أنَّ مَن لم يَرُدَّ الأمرَ إلى نبيِّه ﷺ ليحاكِمَ نَفسَهُ عندَهُ ولَدَيْهِ فإنَّ أمرَهُ مُفظعٌ حقًّا. يقولُ ربُّنا جَلَّت قدرتُهُ في كتابه العظيم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، فَنَفَى اللهُ ربُّ العالمينَ الإيمانَ عمن لم تكنْ هذه سبيلَه، ونَفَى اللهُ ربُّ العالمينَ الإيمانَ عمَّن لم يَرُدَّ الأمرَ إلى نبيِّه ﷺ. ثُمَّ أضافَ إلى ذلكَ زوائدَ بإضافات: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، وإنَّما هو الرِّضا التامُّ، وإنما هي الهدايةُ تُشْرِقُ على القلبِ فتبدِّدُ الظلمات.

اللهُ ربُّ العالمين يأمرُنَا أنْ نَرُدَّ إلى النبيِّ ﷺ، فإذا جاءَ حُكْمُهُ فعلينا ألَّا تضيق بحكْمِهِ صدورُنَا، وإلَّا: يقولُ اللهُ ربُّ العالمينَ: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

(١) تَلَدَّدَ الرجل: تَلَفَّتَ يمينًا وشمالًا، وتَحَيَّر مُتَبَلِّدًا. والتَّلَدُّدُ: التَّلَفُّتُ يمينًا وشمالًا تَحَيُّرًا، مأخوذ من «لَدِيدي العُنق»، وهما صفحتاه (لسان العرب: لدد).

(٢) قال الإمام مالك رحمه الله: «مَن ابتدعَ في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون «اليومَ دينًا» (ذكره الشاطبي رحمه الله في «الاعتصام» ج١ ص ٤٩- ط مكتبة أنس بن مالك، القاهرة).

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، الحُكْمُ للهِ ربِّ العالمينَ وحدَه.

بَلْ إنَّ اللهَ جَلَّت قدرتُه دلَّنا في القرآن العظيم على سبيل الهدايةِ عند اشتجارِ الأمورِ واختلافِهَا، ووضَّحَ لنا نبيُّنا ﷺ السبيلَ عندما تشتبهُ علينا السُّبُلُ، يقولُ نبيُّنا ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ في مسندِه: «**تَرَكْتُكم عَلَى البيضاء، ليلهاَ كنَهَارِهَا، لا يزيغُ عَنْهَا إلَا هَالِكٌ**»[1].

إن اللهَ ربَّ العالمينَ أكملَ لنا الدِّينَ، فإذا ما نَزَلَتْ نازِلةٌ وحَدَثتْ حادثةٌ فحُكمُهَا ببيانهَا في كتابِ اللهِ ربِّ العالمينَ، مهما كانت النازِلَةُ هيِّنَةٍ، ومهما كانت الحادثةُ ضعيفةً، فكيفَ إذا كانَ الأمرُ أمرَ دماءٍ تُرَاقُ، وأرواحٍ تُزْهَقُ، وأموالٍ تُنْهَبُ، ودُورٍ تُخَرَّبُ، وسبيلٍ يصيرُ عِوجًا وأمْتًا؟! كيف؟ . . . هذا ممَّا لا يعقلُهُ عاقِلٌ، ولا يظنُّهُ في الدِّينِ إلَّا منافقٌ عريقٌ في النفَاقِ؛ لأنَّ اللهَ ربَّ العالمينَ أخبرَ في كتابه العظيم: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. تأمَّلْهَا مَليًّا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾، هذا شرطٌ جاءتْ نكرةٌ في سياقِهِ، فـ «شيءٌ» نكرةٌ في سياق الشرطِ، فَتُفِيدُ العمومَ، وإذًا فما من أمرٍ من الأمورِ يقعُ فيهِ النزاعُ إلَّا والمسلِمُ مأمورٌ فيه بردِّهِ إلى اللهِ ربِّ العالمينَ؛ في كتابه، وإلى الرَّسولِ ﷺ؛ في سنَّته.

ثمَّ عقَّبَ بأمرٍ ينبغي أنْ يلتفتَ المسلمُ الحقُّ إليْهِ؛ لأنَّهُ إنْ لم يفعلْ

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه: المقدمة، باب «اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين» (رقم ٤٣) من حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه- وسيأتي بتمامه (ص ٢٠) مع مزيد من التخريج.

فالوعيدُ قائمٌ، والتهديدُ شاملٌ. يقولُ اللهُ ربُّ العالمين: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. وهذا يعني أنَّ مَن لم يَرُدّ إلى الله ربِّ العالمينَ، وإلى الرسولِ الأمين ﷺ عندَ النزاعِ، فهو غيرُ مؤمنٍ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ.

ذلكَ الرَّدُّ عندَ التنازُعِ، وعندما تشْتجرُ الأمورُ، وتَنْبَهِمُ[١] المعالِمُ خيرٌ وأحسنُ مآلًا وعاقِبَةً؛ لأنَّ الإنسانَ لا يقضي في دين اللهِ ربِّ العالمينَ برأيِه، ولا يُحَكِّمُ في دينِ اللهِ ربِّ العالمينَ عقلَهُ، فَهُو دِينٌ كاملٌ شاملٌ تامٌّ، يتسعُ لكلِّ حادثةٍ ونازلةٍ، والحُكْمُ في الكتابِ، وفي السنَّة، لمن هداهُ اللهُ ربُّ العالمينَ سواءَ السبيل... ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ في مطلقِ شيْءٍ، في عمومِ ما يُقالُ لَهُ: «شيْءٍ»، فإنَّهُ لا ينبغي عليكم أنْ تتحزَّبُوا أحزابًا، وإنَّما يُلْقَى هذا كلُّهُ بينَ يديْ رسولِ اللهِ ﷺ ليَفْصلَ النزاعَ فيه، فإذا مَا فُصِلَ في النزاعِ فليسَ إلَّا التسليم، من غيرِ ما حَرَج في الصَّدْرِ، ولا ضِيقٍ في العَطَنِ[٢]، ولا التهابٍ من الداخلِ، سُخْطًا عَلَى حُكْمِ رسولِ اللهِ ﷺ.

إنَّ الأمرَ هيِّنٌ جدًّا؛ ما كانَ اللهُ ربُّ العالمينَ ليجعلَ في الدِّين الخاتَم - الذي لا دِينَ بعدَه، وهو دِينُ اللهِ ربِّ العالمينَ - موضعًا تشتَبِهُ فيه السُّبُلُ

---

(١) أَبْهَمَ عليَّ الأَمْرَ: إذا لم يجعل له وجهًا أعْرِفُه. واستبهَمَ عليهم الأمرُ: استغلق. ويُقال: أمرٌ مُبْهَم، إذا كان مُلْتَبِسًا لا يُعرف معناه. وطريقٌ مُبْهَمٌ: إذا كان خفيًا لا يَسْتَبِينُ (لسان العرب: بهم).

(٢) يُطلق «العَطَنُ» على مَبْرِكِ الإبل حول الحوض، أي: مواضعها. والجمع «أعْطَان». وعطنت الإبلُ عن الماء إذا رَوِيتْ ثم بَرَكَت، فهي إبلٌ عاطنةٌ، و«عَوَاطن». وقد عطَنوا مواشيهم، أي: أراحوها، سُمِّي المُراح - وهو مأواها - عَطَنًا. ونقول: رَجُلٌ رَحْبُ العَطَن، وواسعُ العَطَن، أي رَحْب الذراع، كثير المال (لسان العرب: عطن).

على العقولِ عندما تُزاوِلُهُ معالجةً. وما كان الله ربُّ العالمينَ ليَدَعَنَا في الحياةِ نتكفَّفُ الناسَ آراءَهم، ونتقمَّمُ في زُبالاتِ أهل الرأي ما عندهم، لنشعلَ شمعةً سَرعانَ ما تنطفئ. وما كان الله ربُّ العالمينَ ليَدَعَنَا عالةً على الأممِ في قُمامةِ أفكارِهَا نتقمَّمُهَا من هاهنا وهنالِكَ، وإنَّمَا جعلَ الله ربُّ العالمين لنا الدِّينَ كاملًا، والنعمةَ شاملةً، فمهما وقعَ من أمرٍ فإنَّ الحلَّ عندَ ربِّنَا جلَّتْ قدرتُهُ فِي كتابِهِ، وعلى لسانِ نبيِّه ﷺ.

ولكنْ . . . الفتنةُ إذَا ما أقبلتْ عرَفَهَا كلُّ عالِم، وإذا ما وَقَعتْ عَرَفَهَا كلُّ جاهلٍ. أمَّا إذا ما أقبلتْ مشتبهةً فلا يعلمُهَا إلَّا العالِمُ. وإذا ما وقعتْ الفتنةُ كانتْ شاملةً لا يستطيع العقلاءُ أنْ يدفعوا عن حياضِهَا السفهاءَ، وهذا شـأن الـبـدع . . . ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

هذا شأنُ الفتنِ إذا ما وقعتْ؛ أنها إذا ما وقعتْ واقِعتُهَا فإنَّ العقلاءَ لا يستطيعونَ أنْ يدفعوا عنها السفهاءَ كما بيَّنَ الله ربُّ العالمينَ في هذه الآيةِ العظيمة المباركة . . . ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ لأنَّه إذا أُجِّجَتْ الحماسةُ بالعاطفةِ للشرعِ الأَغَرِّ فانطلقت القيودُ بعدما تُحَلُّ، وصارت القوى في حالةٍ من حالاتِ الاندفاع الأهوجِ، من غيرِ ما ضابطٍ ولا رابطٍ، فما هو إلَّا الدمارُ، وما هيَ إلَّا الفوضَى. وتبًّا لمن قال: «إنها فوضى خلَّاقة»، فإن الفوضَى لا تكونُ خلَّاقَةً أبدًا، وإنَّمَا هيَ المضرَّةُ، وإنَّمَا هو التمزُّقُ، وإنَّما هيَ المحادَّةُ لدين اللهِ ربِّ العالمينَ وسنَّةِ النبيِّ الأمينِ ﷺ.

وقد أخرج الترمذيُّ في (سننه) والحاكمُ في (مستدركه) وابْنُ وضَّاح في كتاب (البِدَع والنهْي عنها)، واللالكَائي في (اعتقاد أهل السُّنَّة)، وكذلكَ أَخْرَجهُ الآجُرِّيُّ في كتاب (الشريعةِ) له - عليهم الرحمةُ - بإسنادِهم

جميعًا، عن عبد اللهِ بْن عَمْرو - رضي الله عنهما - عن النبيِّ ﷺ قال: **«لَيأتينَّ عَلَي أُمَّتِي مَا أتيَ على بني إسرائيلَ، حَذْو النَّعْل بالنعلِ، حَتَّى إنْ كانَ منهم** (يعني من بني إسرائيل) **مَنْ أَتَى أُمَّهُ علانيةً لكانَ في أُمَّتي مَن يصنع ذلك»**. ثمَّ يقولُ الرسولُ ﷺ: **«وإنَّ بني إسرائيلَ تَفَرَّقَتْ على إحدَى وسبعينَ مِلَّة، وتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثلاثٍ وسبعينَ مِلَّة كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحدةً. قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يا رسولَ الله؟ قالَ: مَا أنَا عَليهِ وأصحابي»**[١]. صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وَرَضِيَ اللهُ عنهم.

وإذًا، فينبغي أنْ يُرَدَّ الأمرُ إلى أهْلِهِ، وأنْ يُعَادَ بِهَذَا النَّبع صَفوًا كما تركهُ الرسولُ ﷺ، حتى يَرِدَهُ الوَارِدُون[٢]، فينهَلُوا منهُ، ويُعِلُّوا[٣] ما شاءَ اللهُ ربُّ العالمينَ نَهْلًا وعَلًّا، وإلَّا فَهِي الفتنةُ التي إذا ما أقبلتْ عَرَفَهَا كلُّ عَالِمٍ؛ لأنَّهُ يشمُّهَا، وأمَّا إذا ما وقعتْ عَرَفَهَا كلُّ جَاهِلٍ؛ لأنَّهَا تُصيبُهُ بشرَرِهَا، بَلْ تُصِيبُهُ بِنَارِهَا، ولكنْ يندمُ **«ولاتَ حِينَ مَنْدَم»**، ثُمَّ تتمزَّقُ الأمةُ مِزَقًا، ثُمَّ يصيرُ الأمرُ إلى خَرَابٍ في الدِّيارِ، وهلاكٍ في العِبادِ. وكُلُّ ذلكَ من أجلِ

---

(١) رواه الترمذي في «السنن»، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في افتراق هذه الأمة» (رقم ٢٦٤١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٩). وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٥٣٤٣). وصحح نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«لَتَركَبُنَّ سَنَنَ من كَان قبلكم، شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، وباعًا بباعٍ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبٍّ دخلتم، وحتى لو أن أحدهم ضَاجع أمَّه بالطَّريق لفعلتم»**. (السلسلة الصحيحة رقم ١٣٤٨، وصحيح الجامع رقم ٥٠٦٧).

(٢) وَرَدَ الماءَ، وُرُودًا، ووَرَدَ عليه: أشرف عليه. والوِرْدُ: الماءُ الذي يُورَد. وكلُّ من أتى مكانًا أو غيره فقد وَرَدَهُ. و «الموارِد»: المناهل (لسان العرب: ورد).

(٣) عَلَّ، يَعُلُّها، ويَعِلُّها علًّا. والعَلُّ: الشَّربة الثانية. وقيل: الشُّرب بعد الشُّرب تباعًا. يقال: «عَلَلٌ بعد نَهَلٍ».

إطلاقِ الحماسةِ المكبوتةِ؛ لكي تصيرَ شيئًا غَشُومًا، تمامًا كما في القَصَصِ الأوَّلِ عندما تَنْزِعُ عن الماردِ سِدَادَةَ قُمْقُمِهِ[١]، فإذَا هو مدمِّرٌ هائجٌ لا يستطيعُ أحدٌ ردَّهُ، فكذلكَ قُوَى الشَّعْبِ المكبوتةُ عندما تُحرَّكُ باسْمِ الدِّينِ، وتحتَ شِعَارِه: فإنَّهَا تخرجُ مُحطِّمةً، مُدمِّرة، كالسَّيْلِ لا يَلْوِي على شَيْءٍ، حتى يستقرَّ على قرارِه، فإذَا ما انْجَلَتْ الغُمَّةُ، وإذا مَا ذَهَبَ الغُبَارُ والعِثْيَرُ[٢] تنظرُ هنالِكَ فلا تُخَلِّفُ الحربُ إلَّا أشلاءً، ولا تَدَعُ الفَوْضَى إلَّا خَرَابًا ويَبَابًا[٣]، والأمرُ للهِ ربِّ العالمينَ مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ.

فاللهُمَّ اهْدِنَا، واهْدِ بِنَا، واجْعَلْنَا سببًا لمن اهتدى.

إنَّ النبيَّ ﷺ وَضَعَ هَا هُنا أمرًا واضحًا لا يمكنُ أنْ يَشْتبهَ عَلَى عَاقِلٍ، وهو: «**مَن كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيه اليومَ وأَصْحَابِي**».

وفي حديثٍ آخر أخرَجَهُ الترمذيُّ، وأَبو داود، وابْنُ ماجَه، والحاكم، وكذلك أخرَجَهُ اللالكائي، وهو كذلك عِنْدَ ابْنِ الجوزيِّ في (تلبيس إبليس)، كلُّ أولئكَ بإسنادِهم عن العِرْبَاضِ بْن سَارِيةَ[٤] صَاحِبِ النبيِّ

---

(١) القُمقُم: ضَرْب من الأواني يُسخَّن فيه الماءُ، من نُحاس وغيره. ويكون ضيق الرأس. ويقال: إنها كلمة رومية (لسان العرب، قمم).

(٢) العِثْيَرُ - بكسر العين، بعدها ثاء مُثَلَّثة ساكنة -: الغبار، والتراب. وقيل: هو كل ما قَلَبْتَ من تراب أو مَدَرٍ أو طينٍ بأطراف أصابع رجلَيْك إذا مشيتَ لا يُرى من القدم أثر غيره، فيقال: «ما رأيت له أثرًا ولا عَثْيَرًا» (لسان العرب: عثر).

(٣) أرض يَبَابٌ يعني: خراب. يُقَال: (خَرَابٌ يَبَاب». واليباب عند العرب: الخالي الذي لا شيء فيه (لسان العرب: يبب).

(٤) العِرباض بن سارية، أبو نَجِيح السُّلَمي. صحابي جليل، من أهل الصُّفَّة، وكان ممن نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]. سكن حِمْص، وتوفي سنة ٧٥هـ (من =

ﷺ يقول: «صَلَّى بنَا رسولُ اللهِ ﷺ صلَاة الصبح، ثُمَّ أقبلَ علينا بوجهه، فَوَعَظَنَا موعظةً بليغةً، ذرفتْ منها العيونُ، ووجِلَتْ منها القلوبُ. فَقُلنَا: يا رسولَ اللهِ! كَأَنَّ هَذه موعظةُ مُودِّعٍ، فاعْهَد إلينا بعهد، فَقَالَ النبيُّ ﷺ- كمَا في رواية ابن ماجه -: «**قدْ تركتُكم على البيضَاءِ**[1]، **ليلِهَا**» - على الإتْبَاعِ، وإنْ شِئتَ فعَلى الابتِدَاءِ: ليلُهَا - **كَنَهَارِهَا، لَا يزيغُ عَنْهَا إلَّا هَالِكٌ**».

أو تحتاجون وصيةً؟... أَوَ تحتاجون شيئًا بعد الذي وَضَّحَ لَكُم، فقمتم عليه؟... يقولُ النبيُّ ﷺ: «**تركتُكم على البيضاءِ، ليلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يزيغُ عَنْهَا إلَّا هَالِكٌ**».

وفي رواية لابن ماجه وغيره أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**عليكم بتَقْوى اللهِ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإنْ عَبْدًا حَبَشيًا**- (يعني وإنْ كَانَ الذي قَدْ وُلِّي أمرَكمَ حَبشيًّا)، **فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ منكم بَعْدِي فَسَيَرَى اختلافًا كثيراً**».

يقولُ النبيُّ ﷺ هذامن عند رَبِّه وَحْيًا؛ لأنَّهُ من الأمورِ المستقبلية، من الغيب غير المنظورِ، فأَطْلَعَهُ ربُّنَا الغفورُ، فأبْلَغَهُ البشيرُ النذيرُ ﷺ... يقولُ للأصحابِ: «**مَن يَعِشْ منكم بَعْدِي فسيرَى اختلافًا كثيرًا**»... وفي روايةٍ: «**فسيرى أَثَرَةً**»، يعني: تملُّكًا للأموالِ ممن وُلُّوا عليكم بغيرِ حَقٍّ، ولرُبَّمَا وقعتْ مظالِمُ وكَانَ جَوْرٌ... «**فَسَيَرَى اختلافًا كثيرًا**». إلَّا أنَّ الفرقانَ الظاهر، والعلَامَةَ الباهرةَ أتَى بِهَا الرسولُ ﷺ، في قوله: «**فعليكم**

= مصادر ترجمته: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ١٦٥، ٩/ ٤١٥-٤١٦)، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ١٣، والإصابة لابن حجر ٤/ ٤٨٢-٤٨٣، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٤١٩-٤٢٢).

(١) «على البيضاء» أي: الملة النقية، والحُجة الواضحة التي لا تقبل الشُبَه.

بِسُنَّتِي». أي: عندما يقع الاختلافُ الكثيرُ.

والنبيُّ ﷺ أتى بهِ منكَّرًا للتفخيم والتهويل، ولم يقفْ عندَ حدودِهِ لفظًا حتى وصفَهُ بالكثرةِ الظاهرة . . . **«فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ[1] وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**[2].

في هذا الحديثِ الصحيح يبيِّن لَنا النبيُّ ﷺ كَمَا بَيَّن لَنَا في الحديث الثابتِ الحَسَنِ من رِوَاية عبدِ اللهِ بْنِ عمرو - رضي الله عنهما- أنَّ النجاةَ في هَذَا السَبيلِ، وأنَّهُ لا نَجَاةَ إلَّا في هذا السبيلِ: **«مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ اليومَ وَأَصْحَابِي»**. رِضْوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ.

رَايَةٌ منضبطة وحركةٌ في ظلِّ الرَّاية بانضباط. **أَمَّا الرَّايَةُ** فالإخلاصُ بتجريد التوحيدِ للهِ ربِّ العالمينَ. **وأمَّا الحركةُ المنضبطةُ** في ظلِّ الرايةِ

---

(١) النواجذ: أقصى الأضراس، وهي أربعة، في أقصى الأسنان بعد الأرْحَاء.
وقيل: هي التي تلي الأنياب. وقيل: هي الأضراس كلها. وقول العرب: «بدت نواجذه» إذا أظهرها ضحكًا أو غضبًا. وقوله ﷺ في الحديث: « عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» أي: تمسَّكُوا بها كما يتمسك العاض بجميع أضراسه. (لسان العرب: عضض).

(٢) حديث العرباض بن سارية: رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/١٢٦-١٢٧) وأبو داود: كتاب السنة: باب «في لزوم السنة» (رقم ٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب «ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البِدع» (رقم ٢٦٧٦)، وابن ماجه: المقدمة (رقم ٤٢، ٤٣، ٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/٩٦)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/٢٢٨). وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٢-١٣، ط مكتبة المتنبي، القاهرة). وقد صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٩٣٧)، و «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٢٥٤٩).

المرفوعةِ بإخلاصٍ فهي حركةٌ على قدَم محمدٍ ﷺ؛ بتجريدِ المتابعةِ للنبيِّ ﷺ، فمهما كَانَ الشِّعَارُ بَرَّاقًا، ومهما كانت القلوبُ مخلصةً فَقُلْ: «**يا هَادِيَ الطريقِ جُرْتَ**». هذِه قَوْلَةُ أبي بكر رِضوانُ اللهِ عليْهِ وعلى الصحابةِ أجمعين، يقولُ للذي يَحْدُو بالإبلِ قائدًا في المقدِّمة يتحرَّك بحركته الناسُ: «**يا هَادِيَ الطريقِ جُرْتَ**»، يعْنِي: جُرْتَ عن الطريقِ وما عدلْتَ، واعوجَجْتَ عنِ السَّبيلِ وما استقمْتَ.

إنَّ النهجَ القاصدَ هو في قول النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ اليومَ وأَصْحَابي**»، حتى لا يحتجَّ أحدٌ بما شَجَرَ بَعْدُ مِن خِلافٍ كَانَ سَائغًا، فأحدُهمَا مخطئٌ، والآخَرُ كَانَ على الصوابِ، فالمخطِئُ لَهُ أجْرٌ لاجتهادِهِ وما كَانَ فِيهِ، وأمَّا الذي اجتهدَ فأصابَ فَلَهُ أجران، . . . «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ اليومَ وأَصْحَابي**». . . «**فسترونَ اخْتِلافًا كثيرًا**». . . ثُمَّ جَاءَ النبيُّ ﷺ بما يُخْرِجُ مِن الاختلافِ ظاهرًا وباطنًا، فَقَالَ: «**فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي** . . .».

وتأمَّلْ مطابِقًا، هَدَانِي اللهُ وإِيَّاكَ سُبُلَ الرَّشَادِ. طَابِقْ بَيْنَ هَذَا الكَلامِ النبويِّ الشريفِ الصحيحِ، وذلك الكلام النبويِّ الشريفِ الحَسَنِ تجد الأمرَ منطبِقًا حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّةِ، من غَيْرَ مَا زِيادَةٍ ولا نُقْصَانٍ، يقولُ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

إنَّ النبيَّ ﷺ لم يترُكْنَا لِمَا يستقْبِلُنَا من أحداثٍ حتى يُقيمَ اللهُ ربُّ العالمينَ الساعةَ. لم يترُكْنَا النبيُّ ﷺ عِنْدَ وقوعِ النوازِلِ وحدوثِ

الحوادثِ. لم يتركْنَا مُتلدِّدينَ حَيَارَى نتخبَّطُ هَاهُنَا وهنالِكَ في ظلمة الدياجير[١]، وإنَّمَا أعْطَانَا مِشعلَ الهداية، ورَفَعَ لَنَا عَلَمَهَا، «**فَلا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ**»، كَمَا قَالَ ﷺ.

وأَزِيدُكَ بِفَضْلِ اللهِ ربِّ العالمينَ ومن فضلِهِ؛ فإنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ لَهُم مَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبلِ الأيَّامِ مِن الفِتَنِ العِظَامِ، وذَكَرَ الدَّجَّال، فَمَا زَالَ يَذْكُرُهُ يُرَفِّعُ فِيهِ ويُصوِّبُ، حتى كأنَّهُ فِي طَائفةِ النخلِ: قالَ الأصْحَابُ رِضوانُ اللهِ عليهم متسائلين - لَمَّا قَالَ لَهم النبيُّ الأمينُ ﷺ: «**يَكُونُ فيكم يَوْمًا كَسَنَة، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ فيكم يومًا كشهرٍ، ثُمَّ يَكُونُ فيكم بَعْدَ ذَلكَ يَوْمًا كأسْبُوعٍ، ثُمَّ سَائِرُ أيامِهِ كأيامِكم هَذِهِ**»، يظلُّ في الأرضِ أربعينَ يَومًا عَلَى هَذَا النحوِ الذي ذَكَرَهُ النبيُّ ﷺ - فقالَ الأصحابُ رضي الله عنهم مُتسائلين: هَذَا اليومُ الذي هو كالسَّنَةِ تكفينا فيه صلواتٌ خمسٌ يا رسولَ اللهِ؟ قَالَ النبيُّ ﷺ: «**لا، بَلِ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**»[٢].

---

(١) الدَّياجير: جمع «دَيْجُور»، وهو الظلام. ويوصف به فيقال: ليلٌ دَيْجُور، ليلةٌ دَيْجُور، أي: مظلمة (لسان العرب: دجر).

(٢) روى مسلم في صحيحه: كتاب الفتن، باب «ذِكْر الدجال» (ج١٨ ص٦٣-٧٠ بشرح النووي) عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجَّالَ ذاتَ غَدَاةٍ، فخَفَّضَ فِيه ورفَّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحْنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: ما شأنُكم؟ قلنا: يارسول الله، ذكرتَ الدجَّال غَدَاةً، فخَفَّضتَ فيه ورَفَّعتَ حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: غيرُ الدجَّال أخْوَفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُه دُونكم، وإن يخرجْ ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قَطَطٌ (أي شديد جعودة الشعر)، عينُهُ طافئةٌ، كأني أُشبِّهه بعبد العُزّى بن قَطَنٍ. فمن أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف. إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وشمالًا. يا عباد الله، فاثبتوا. قلنا=

فانظرْ إلى هذا الأمرِ المستقبلِ مِن وقائع الفتن، يسألُ عنهُ الأصحابُ - رضي الله عنهم -، ويُجيبُ النبيُّ ﷺ، ليَهْلِكَ بَعْدُ مَن هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ، ويَحْيَا بَعْدُ مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَة. واللهُ ربُّ العالمينَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيئًا، وَلَكِنَّ النَّاسَ أنفسَهم يظلمون.

إنَّ الرسولَ ﷺ جَاءَ بدِينٍ يَعرِفُ النظامَ قائمًا، ولا يُحبُّ الفوضَى، ولا يُسيغُها أبدًا. وقد روى مسلم عن عَمْرو بْنِ أَخْطَبَ ﷺ[1]، قَالَ: «**صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ فصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَمَازَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ**

= يا رسول الله، وما لُبْثُه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا، يومٌ كسَنَة، ويومٌ كشهرٍ، ويوم كجمعةٍ، وسائرُ أيامِهِ كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟ قال: لا، اقْدُروا له قَدْرَه...» الحديث، وهو طويل. ورواه أبو داود مختصرًا: كتاب الملاحم، باب «خروج الدجال» (رقم ٤٣٢١).

(١) عَمرو بن أخطب بن رفاعة بن محمود بن بشر بن عبد الله، أبو زيد الأنصاري، الخزرجي. صحابي جليل، مشهور بكنيته. غزا مع النبي ﷺ ثلاث عشرة مرة، وكان رجلًا جميلًا، ورَوَى هو عن النبي ﷺ فقال: «مسح رسول الله ﷺ يده على وجهي، ودعا لي. قال حفيده عَزرة بن ثابت: فعاش مائة وعشرين سنة، وليس في رأسه إلا شعرات بيض» (رواه أحمد في المسند ٥/ ٧٧، والترمذي رقم ٣٦٢٩، وحسَّنه، وصححه ابن حبان، وهو صحيح كما قال محقق سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٧٤). وقد سكن عمرو - رضي الله عنه - البصرة، وفيها مسجد يُعرف به. وحديثه في الكتب سوى صحيح البخاري (كما قال الذهبي). توفي في خلافة عبدالملك بن مروان الأموي (٦٥-٨٦ هـ). (من مصادر ترجمته: الطبقات الكبرى لابن سعد ٩/ ٢٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٤٧٣-٤٧٤، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤/ ٥٩٩، ٧/ ١٥٨).

وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ». يَقُولُ عَمْرو بْنُ أَخْطَبَ ﷺ: «**فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا**»[١].

لقد حدَّثَنَا نبيُّنا ﷺ عَمَّا يكونُ وما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ. ما فرَّط في البلاغِ، وما فُرِّطَ في الكتابِ مِنْ شَيءٍ، وإنَّمَا هُو البيانُ الواضحُ الجَليُّ الذي لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ ولا التِوَاءَ، فمن أَخَذَ به فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وأَمَّا مَنْ حَادَ عَنْهُ فَإِنَّ مَآلَهُ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ - إلى مَا تعلمونَ. نسألُ اللهَ الهِدَايَةَ لَنَا وللمسْلِمينَ أجمعين.

إنَّ النبيَّ ﷺ يوضِّحُ لَنَا أَنَّهُ عَلينا أنْ نلزمَ ما جَاءَنَا بِهِ، وأن نَكُونَ وقَّافينَ عِنْدَ حدود أوامِرِ اللهِ ربِّ العالمينَ، وأوامر النبيِّ الأمين ﷺ. ودُونَكَ ما ذَكَرَهُ لَكَ نبيُّكَ ﷺ، وأخرَجَهُ الإمامُ أحمدُ فِي مُسْنَدِه، وعليْهِ متَابَعَاتٌ تَرْقَى بِهِ إلى درجَةِ الصِّحةِ، وذَلِكَ أنَّ «عياضَ بْنَ غَنْم»[٢] - وهو من أصحاب النبي ﷺ، ورضي الله عنهم أجمعين، وقائدٌ من قُوَّاد المسلمينَ الذينَ شُهِدَ لَهم بالشجاعةِ والثباتِ والقُوَّةِ- لَمَّا فَتَحَ بَلَدًا يُقال لها:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة (ج١٧، ص ١٦ بشرح النووي). ورواه الإمام أحمد في المسند، (رقم ٢١٨١٧).

(٢) عياض بن غَنْم (بفتح الغين وسكون النون) بن زُهير بن أبي شدّاد، أبو سعد القرشي الفِهْرِي. صحابي جليل. أسلم قبل الحديبية، وشهدها، وكان خيّرًا زاهدًا سخيًا، استخلفه أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه- حين وفاته- على الذي كان يليه بالشام، فأقره عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، فلم يزل واليًا حتى مات (سنة عشرين) وهو ابن ستين سنة، ولم يترك مالًا، وليس عليه دَيْنٌ لأحد. وليس هو «عياض بن زُهَيْر»، فإن هذا الأخير بَدْري، ومن المهاجرين الأولين، وهو عمُّ عياض بن غَنْم، ويكنى «أبا سعد» أيضًا، وتوفي سنة عشرين للهجرة، ويقال: سنة ثلاثين في خلافة عثمان بن عفان- رضي الله عنه-. (من مصادر الترجمة: الطبقات الكبرى، لابن سعد ٩/٤٠٢، وسير أعلام النبلاء، للذهبي ٢/٣٥٤-٣٥٥، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٤/٧٥٣-٧٥٤، ص ٧٥٧-٧٥٨).

«دارا»[١] أخذ صاحبَها- يعني: من كان حاكمًا عليها قبل الفتح- فَجَلَدَهُ، فَقَامَ لَهُ «هشامُ بْنُ حَكيم»[٢]- وهو من أصحابِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فأنكرَ عَلَيْهِ، فأغْلظَ لَهُ القَوْلَ، فَغَضبَ عياضٌ، ومضتْ ليالٍ، ثُمَّ ذَهَب «هشامُ ابْنُ حكيم» إلى «عياضِ بْن غَنْم» فاعتذر إليْهِ، فَقالَ لَهُ: يَا عِياض! أَلَمْ تسمع النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيامَةِ أشدَّهم عذابًا في الدنيا للناس**»؟. فَقَالَ لَهُ عِياضٌ: «يا هِشام! قَدْ سِمِعْنَا مَا سَمِعْتَ، وَرَأَيْنَا مَا رأيْتَ، أوَ لَمْ تَسْمَعْ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيأْخُذْ بِيَدِهِ، فَيَخْلُو بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ فَذَاكَ، وإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ**»[٣].

---

(١) دارا: بليدة في لحف جبل بين نصِيبين وماردين، من بلاد الجزيرة شمالي العراق، وهي ذات بساتين ومياه جارية (ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص ٤١٨، ط دار صادر، بيروت، الأولى ١٩٩٣م).

(٢) هشام بن حكيم بن حِزَام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصي، القرشي، الأسدِي، صَحابي جليل، قال عنه ابن سعد: «كان مهيبًا» وقال الزهري: «كان يأمر بالمعروف، فكان عُمر- رضي الله عنه- إذا رأى منكرًا قال: أمّا ما عشتُ أنا وهشام ابن حكيم فلا يكون هذا». استشهد في معركة «أجنادين»- بالعراق- (سنة ١٥هـ). وقال ابن سعد: «توفي في أول خلافة معاوية»، وأبوه هو «حكيم بن حزام»، ابن أخت أم المؤمنين خديجة- رضي الله عنها- فهي عمته، أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه، وكان من أشراف قريش وعقلائها. (راجع ترجمة هشام في: الإصابة، لابن حجر ٦/٥٣٨-٥٣٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ج٣ ص٥١-٥٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» ٣/٤٠٣ (رقم ١٥٣٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٩٠)، وعنه البيهقي في «السنن» (٨/ ١٦٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٣٦٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٢٢) وصححه الألباني رحمه الله تعالى في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (٢/ ٥٢١-٥٢٢) وفي صحيح مسلم طرف منه: كتاب البر والصلة، باب «الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق» =

لقد سَنَّ لَنَا النبيُّ ﷺ في هَذَا الدِّين العظيم أَلَّا يُتَنَاوَلَ الولاةُ عَلَى رُءوس المنابرِ، لتحريكِ العاطفةِ الدينيَّة عندَ مَن لا يَمْلِكُونَ حَوْلًا ولَا حِيلَةً، حتى إذا مَا انطلقَ الماردُ من قُمْقُمه[1]، كانت الفوضى، وكانت الثورة، وكان الانقلابُ، وكانَ مَا كَانَ ممَّا لا يُحْمَدُ.

وأَوَّلُ انقِلابٍ كَانَ فِي دينِ الإسلامِ العظيم كَانَ بسببِ فَتْحِ هَذَا البابِ، وبتجاهُلِ هَذِهِ النصيحةِ، فإنَّ القومَ وراءَ عبدِ اللهِ بْنِ سَبأ اليهوديِّ[2] -لَمَّا أخذوا ينقدون عثمانَ بْنَ عفَّانَ ظاهرًا، ويُعلنونَ بذلكَ على رءوس المنابر، وفي المجامع، وعلى رءوس الأشهادِ -: فتحوا بابًا لم يُغْلَق،

= من حديث هشام بن حكيم رضي الله عنه: «أنه مَرَّ -بالشام- على أُناسٍ وقد أُقيموا في الشمس، وصُبَّ على رءوسهم الزيتُ. فقال: ما هذا؟ قيل: يُعذَّبون في الخَراج (وفي رواية لمسلم: قال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا في الجزية) فقال هشام: أمَا إني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذّب الذين يُعذّبون (الناسَ) في الدنيا**» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ١٩٠٠).

وننصح- في هذا الباب- بقراءة كتاب «معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة» للدكتور عبد السلام بن بَرْجَس العبد الكريم، (ط. مكتبة الفرقان، دولة الإمارات العربية المتحدة، عجمان، الطبعة السادسة).

(١) سبق ذكر معناها (ص ١٨).

(٢) عبد الله بن سبأ: كان يهوديًا من اليمن، وقيل: من أهل الحيرة (جنوب العراق)، ثم أسلم ظاهرًا. ويتفق المشاهير من العلماء والمؤرخين، من سلف الأمة وخَلَفِهَا على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار فاسدة، وطاف البلاد؛ لِيَلفتَ الناس عن دينهم، وطاعة إمامهم، ويوقع بيهم الفرقة والاختلاف، وكان من الرءوس الذين أثاروا الفتنة، وتولوا كبْرَها، وَقَلَّبوا الغوغاء على الخليفة عثمان رضي الله عنه، ودبروا له المكايد حتى قتلَ شهيدًا. وقد غلا ابن سبأ في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزعم أنه نبي، وكان يقول له: «أنت الإله»، وأظهر «الرفض» وانتقص الشيخين أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما-، وتبعه على ذلك طوائف من الجهلة، من الرعاع والطَّغَام،=

وما زَالَ السيفُ مَرْفُوعًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، كلُ ذلك بسبب الإعلانِ بالنكير على أُولي الأمرِ، على رءوس الأشهادِ، فهيَّجُوا العوامَّ، وزوَّرُوا الكُتُب، وأخذوا يَكذبونَ على ألسنةِ الأصحابِ المكرَّمينَ، رضوانُ اللهِ عليهم أجمعين، فما زَالُوا يَؤُزُّونَ(١) العوامَّ بهوامِّ الطَّغام، حتى كانَ ما كَانَ. وبعدَ انقضاءِ موسمِ الحجِّ تجمَّعَ الثوَّارُ هنالك. والفتنةُ إذا مَا وقعتْ لم يستطع العقلاءُ أن يدفعُوا عن حياضِهَا السفهاءَ، وهذا مَا كَانَ في مدينة النبي ﷺ، وحولَ دارِ عثمانَ بْن عَفَّانَ صَاحبِ النبيِّ ﷺ، وثالثِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ، وأَحْيَا هَذِهِ الأمَّةِ - أيْ أشدَّهَا حياءً ﷺ،

= عُرفوا فيما بَعْدُ بـ «السبئية»، وهم أصل الشيعة الغُلاة «الرافضة». وقد وقف عليٌّ- رضي الله عنه- لهذه الطائفة بالمرصاد، وأظهر البراءة منهم، ونبه على سوء مقالاتهم، وأحرق من صح عنده أنه يقول بألوهيته، ونفى ابنَ سبأ إلى «المدائن»، ثم أظهر هذا الأخير - بعد موت عليٍّ ﷺ القولَ «بالرجعة» و «الوصية» و «العِصْمة» وغير ذلك من المعتقدات الباطلة التي لا يزال الشيعة الغُلاة في عصرنَا من الاثني عشرية «الجعفرية» والإسماعيلية ... إلخ- يرددونها ويعتقدونها. وشخصية ابن سبأ حقيقة تاريخية، وليست وهمية كما يدّعي الكثيرون، وأغلبهم من المستشرقين، ومن الشيعة المعاصرين، وقد فاضت بسيرته كتب التاريخ والفِرق، وكتب الحديث والرجال والأنساب والأدب واللغة. ومن أراد المزيد للتعرف على شخصية ابن سبأ ومقالاته، ودوره في الفتنة فليرجع- على سبيل المثال- إلى: الفَرْق بَيْن الفِرَق، لعبد القاهر البغدادي الإسفراييني ص ٢٣٣-٢٣٦، ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج١ ص٨٥، والفِصَل في الأهواء والملل والنِّحَل، لابن حزم ج٤ ص ١٨٠، وابن حجر في لسان الميزان ج٣ ص٢٨٩-٢٩٠، ومن كتب المعاصرين: «الشيعة والتشيع» لإحسان إلهي ظهير، و «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة»، للدكتور محمد أمحزون، وغيرها).

(١) أزّه، يؤزّه، أزًّا: أغراه وهيَّجه، وحرَّضه. والأزُّ التهييج والإغراء، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. أي: تغريهم وتزعجهم إلى المعاصي (لسان العرب: أزز).

وزَوْجِ ابنَتَيْ رسولِ الله ﷺ، وهـو الـذي اشتَرَى بئرَ رُومة، فجعَلَها صَدَقَةً عَلَى المُسْلِمينَ، وجَيَّشَ جَيْشَ العُسْرَةِ عَتَادًا ومددًا[١]، – رضي الله عنه –، وصاحبُ القولِ المأمونِ في جَمْعِ القرآنِ العظيم. هَذَا الصحَابيُّ الجَلِيلُ يَسُوسُ الناسَ بدينِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ولَا يُبَالِي، فانتقدَ عَلَيْهِ المنتقِدُونَ مَا انتَقَدُوا، ثُمَّ مَازَالُوا يُحرِّكُونَ الفتنةَ بِضَرَاوتها، حَتَّى تجمَّعَ هَوامُ العَوامِّ من الطَّغَامِ حَول بيتِهِ، بعدَ مَوْسِم الحجِّ بانقضائِه، فَمَا زَالُوا لَهُ مُحاصِرِينَ، حتى مُنِعَ عَنْهُ الماءُ والزَّادُ، وكادَ يَهْلكُ عطشًا، وأمَّا عليٌّ والأصحابُ وأبناءُ الأصحاب – كالحسن، والحسين، وعبد الله بْنِ الزُّبيْر، وأولادِ أبي بكر، ومَن كَانَ هُنَالِكَ مِنَ الأصْحَابِ رِضْوَانُ اللهِ عليهم جَمِيعًا – فَلَم يستطِيعوا أمامَ المَدِّ الزَاحِفِ المُكْتَسِح أنْ يَفْعَلُوا شَيئًا. قُتِلَ عُثْمَانُ فِي الدَّارِ شَهِيدًا ﷺ، وفي المدينةِ أصحابُ النبيِّ ﷺ، فلم يستطيعُوا أَنْ يَدْفَعُوا الثَورةَ لَمَّا خَرَجَتْ من صُدُورِ الثائرينَ، ولم يستطيعُوا أنْ يَكفُّوا الرَّعَاعَ عن حياضِ الموتِ يَنْهَلُ مِنهَا عُثْمَانُ – رضي الله عنه –، حتى يَلْقَى ربَّهُ شهيدًا[٢].

---

(١) جيش العُسرة: هو الذي أعده النبي ﷺ لقتال الروم، وخرج به من المدينة حتى نزل «تبوك» على مشارف الشام في العام التاسع للهجرة. وقد عرفت الغزوة بـ «العُسرة»، للظروف الشديدة التي خرج فيها رسول الله ﷺ؛ من شدة الحر، وضيق النفقة، والقحط الشديد، والسفر الطويل، فانتدب النبي ﷺ الناس للبذل، فقال: «من جهّز جيش العُسرة فله الجنة»، فجاء عثمان بن عفان ﷺ بألف دينار فصبها في حجر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ يقول:

« **ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**». رواه البخاري، كتاب الوصايا (رقم ٢٧٧٨) [الفتح ٥/٤١٧]، والترمذي كتاب المناقب (رقم ٣٧٠١)، وحسَّن الألباني رواية الترمذي.

(٢) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تاريخه (البداية والنهاية ج٤ ص ٢٥٩-٢٦٠ – ط دار الغد العربي): «إن قال قائل: كيف وقع قتل عثمان ﷺ =

فَهَذِهِ أَوَّلُ مُظاهَرَةٍ فِي دينِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وهَذِهِ أَوَّلُ انتفاضةٍ كَانَتْ من المسلمين، وهَذِهِ كانتْ كأوَّلِ انقلابٍ فِي دِينِ الإسلامِ العظيمِ، فَمَاذَا خلَّف؟ قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ شَهِيدًا، وكانَ ما كَانَ بَعْدُ؛ من وقوعِ الفتنةِ بينَ أصحابِ النبيِّ ﷺ، مِمَّا أدَّى بَعْدُ إلى قَتْلِ الأصحابِ -رضي الله عنهم-، كطلحةَ والزُّبيرِ في معركة «الجمل» وعمَّار بْنِ يَاسِر في «صِفِّين»، ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ قَتْلِ عليٍّ- رضي الله عنه-. كلُّ ذَلِكَ إيمانًا بهَذِهِ الثورةِ التي تُحرِّكُ بلهيبِهَا فِي الصُّدُورِ، فإذا مَا خَرَجَ النَّاسُ عَنِ الشُّعُورِ، وإذَا مَا انْدَسَّ بَيْنَ الناسِ مَنْ لا يَرْقُبُ فِي مؤمنٍ إلًّا ولا ذِمَّةً يَكُونُ كَمِثلِ الذي كَانَ، وقُتِلَ فِيهَا

= بالمدينة وفيها جماعة من كبار الصحابة- رضي الله عنهم-؟ والجواب:

الأول: أن كثيرًا منهم - بل أكثرهم أو كلُّهم - لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله.

الثاني: أن الصحابة مانعوا دونه أشدَّ الممانَعة، ولكن لما وقع التضييق الشديد، عزم عثمان على الناس أن يكفُّوا أيديهم، ويغمدوا أسلحتهم، ففعلوا، فتمكّن أولئك- أي الأحزاب- مما أرادوا، ومع هذا ما ظن أحد من الناس أنه يُقتل بالكلية.

الثالث: أن هؤلاء الخوارج - مثيري الفتنة - اغتنموا غَيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنُّصرة، بل لما اقترب مجيئهم انتهزوا فرصتهم - قبَّحهم الله - وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

الرابع: أن هؤلاء الخوارج كانوا قريبًا من ألفي مقاتل، وربما لم يكن في أهل المدينة العُدّة من المقاتلة، لأن الناس كانوا في الثغور، وفي الأقاليم في كل جهة، ومع هذا كان كثير من الصحابة قد اعتزل هذه الفتنة، ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلا ومعه السيف، يضعه على حَبْوته إذا احتبى، والخوارجُ مُحْدِقُون بدار عثمان ﷺ، وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكنهم ذلك، ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار يحاجفون- أي: يقاتلون ويدافعون- عن عثمان ﷺ إلى أن تقدم الجيوش من الأمصار لنصرته، فما فجيء الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها، وأحرقوا ببابها، وتسوَّروا عليه حتى قتلوه.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضيَ بقتل عثمان ﷺ، بل كلُّهم كرهه ومَقَتَه» (انتهى مختصرًا وبتصرف يسير).

عُثْمَانُ رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِ وعَلَى الصَّحَابَةِ أجمعينَ.

عِبَادَ اللهِ: إنَّ دِينَ اللهِ ربِّ العالمينَ واضحٌ وجَلِيٌّ، وإنَّ مَنْ أرادَ عِنْدَ النزاعِ أنْ يَحْتَكِمَ إِلَى كِتَابِ اللهِ ربِّ العَالَمِينَ وإلى سُنَّةِ الأمين، فَهُو آخِذٌ بأَرْشَدِ أَمْرِهِ، وإلَّا فإنَّهُ عَلَى غَيْرِ سبيلٍ، وَلَيحمِلَنَّ وِزْرَهُ وَوِزْرَ مَن تَبِعَهُ، وليحملنَّ وِزْرَ الدمَاءِ المسفُوكَةِ، المسفوحةِ، والأعراضِ المُنْتَهَكَةِ، والأموالِ المهدَّرةِ المنهوبةِ، والدِّيارِ التي تصيرُ بَعْدُ خَرَابًا ويبابًا[1]، وليحمِلَنَّ وِزْرَ تَدخُّلِ الكُفَّارِ فِي أمورِ المسلمينَ ظاهرًا وباطِنًا، من بَعْدِ أَنْ كَانَ باطِنًا، وليجعلنَّ نِيرَ[2] الكُفْرِ والشِّرْكِ على رِقَابِ المسلمينَ.

فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَقْوَامٌ رُبَّمَا كَانُوا تَحْتَ رَايَةٍ صحيحةٍ، وإلَّا فَأَيْنَ المُتَابَعَة؟ أَيْنَ المُتَابَعَةُ للنبيِّ ﷺ؟.

إنَّ الفتنةَ إذا مَا أَقْبَلَتْ عَرَفَهَا كُلُّ عَالِمٍ، فَإِذَا مَا أَدْبَرتْ عَرَفَهَا كُلُّ جَاهِلٍ. فَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَبَصَّرُوا، وأَنْ يُحْسِنُوا الأخذَ بِهَذَا الأَمْرِ والنظرَ فِي عواقِبِهِ.

وهَذَا أسامةُ بْنُ زَيدٍ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبِيهِ، يُقَالُ لَهُ: «**أَلَا تدخلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكلِّمُه؟**»... لأَنَّهُ حِبُّ رَسُولِ اللهِ وابْنُ حِبِّه ... فيقولُ مُسْتَنْكِرًا: «**أَتَرَونَ أَنِّي لا أُكلِّمُه إلَّا أُسْمِعُكم؟**»، يعني: أفلا أكلِّمُ عُثْمَانَ وأعظُهُ وأُذكِّرُهُ إلَّا عَلَى مَسْمَعٍ منكم؟ وبمَرْأى ومشهدٍ منكم؟ « **والله لقد كلَّمتُه فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتحَ أمرًا لا أُحبُّ أن أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ**

(١) سبق معناها (ص ١٨).

(٢) النِّير: القَصَب والخيوط إذا اجتمعت. والنير: العَلَم، يقال: نِير الثوب: عَلَمُه. والجمع «أنيار» (لسان العرب: نير).

فَتَحَهُ»(١). رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبِيهِ. وقد اعتزَلَ النَّاسَ جَانِبًا، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ أَمْرَ عَلِيٍّ- ﷺ، وعليٌّ يقولُ لَهُ مُدَاعِبًا: «يا أسامةُ! إِنَّكَ مِنَّا – مِنْ أَهْلِ البيتِ- فَلِمَ لَا تَكُونُ مَعَنَا؟» فَيقولُ: **«هُوَ عَهْدُ رسولِ اللهِ ﷺ لِي»**. فاعتزلَ النَّاسَ جَمِيعًا، حتَّى مَضَتْ الفتنة، ووضعتْ جِرَانَهَا(٢)، وخَلَّفَتْ – ويا سَوْءَ مَا خَلَّفَتْ- فُرْقَةً، وبُغْضَةً، ودَمَارًا، وافْتِراقًا، وَمذَاهِبَ شَتَّى، كلٌّ يُحسِّنُ بالعُجْبِ رَأْيَهُ فِيهَا ممن انضَوَى إليها.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: **«ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإِعْجَابُ المرءِ بِنَفْسِهِ»**(٣).

---

(١) الحديث في الصحيحين، أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «الفتنة التي تموج كموج البحر» (رقم ٧٠٩٨) [الفتح: ١٣/٥٢]، ومسلم (واللفظ له): كتاب الزهد، باب «عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويأتيه» (صحيح مسلم بشرح النووي ج١٨ ص ١١٧-١١٨)، ورواه الإمام أحمد في «المسند»(٥/٢٠٥، ٢٠٧). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٩٢).

ومن المفيد أن نذكر هنا ما نقله ابن حجر عن «المُهلَّب» في تفسير قول أسامة- رضي الله عنه- في الحديث: «قد كلمتُه سرًا دون أن أفتح بابًا»، قال: «أي: باب الإنكار على الأئمة علانيةً، خشية أن تفترق الكلمة». ثم نقل ابن حجر عن عياض قوله: «مُراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لِمَا يُخشى من عاقبة ذلك، بل يتلطف به، وينصحه سرًّا، فذلك أجدرُ بالقبول» (فتح الباري ١٣/٥٧).

(٢) الجران: باطن العنق. وقيل: مُقدَّم العُنُق من مذبح البعير إلى مَنْخره، فإذا بَرَك البعير ومدَّ عنقه على الأرض، قيل: ألقى جرانه بالأرض. (لسان العرب: جرن). والمراد بقول الشيخ هنا: «ووضعت جرانها»: انتهت الفتنة واستقرت، وقر قرارها.

(٣) الحديث حَسَنٌ بمجموع طرقه كما ذكر الألباني في «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٨٠٢ ج٤ ص ٤١٢-٤١٦)، و «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٣٠٣٩، ٣٠٤٥)، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، أنس بن مالك، وابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة – رضي الله عنهم أجمعين-. وتمامه-: **«ثلاثٌ ملهكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوَى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه، وثلاث مُنَجياتٌ: خشية الله في السرِّ والعلانيةِ،=**

وَهَذَا لا يَتَمَاشَى أبدًا مع الرجوعِ الكاملِ لأمْرِ النبيِّ ﷺ. فإنَّه ﷺ يقول: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، يعني: فهو مردودٌ عَلَيْهِ[2].

وصلى الله وسلَّم وبارك عليه. أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ الله العظيمَ لي ولكم.



= **والقصدُ في الفقر والغنى، والعدلُ في الغَضَب والرضا**».

(١) متفق عليه من حديث عائشة- رضي الله عنها-. أخرجه البخاري موصولًا في كتاب الصلح، باب «إذا اصطلحوا على صلح جَوْرٍ فالصلح مردود» (رقم ٢٦٩٧) [الفتح ٥/ ٣٥٥]. ومسلم، كتاب: الأقضية، باب «نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور» (صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٦). ورواه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب «لزوم السُّنَّة» (رقم ٤٦٠٦)، وابن ماجه: «المقدمة»، باب «تعظيم حديث رسول الله ﷺ (رقم ١٤). والإمام أحمد في «المسند» (٦/ ١٤٦، ١٨٠).

(٢) قال النووي رحمه الله: «هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمِهِ ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات (أي: المحدثات في الدين) ». وقال أيضًا: «وهذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به» (شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٦). وقال ابن حجر في الفتح (٥/ ٣٥٧): «وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده؛ فإن معناه: من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصلٌ من أصوله فلا يُلتفت إليه».

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، هُوَ يَتَوَلَّى الصالحينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عَبْدُه ورسولُهُ، صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وسلَّم، صَلاةً وسلامًا، دائمَيْن مُتلازِمَيْنِ إلى يَوْمِ الدينِ.

أمَّا بعدُ: فإنَّ النَّجَاشِيَّ كَانَ مَلِكًا على نَصارَى الحَبَشَةِ، أسْلَمَ للهِ أَمْرَهُ وَقَلْبَهُ، وتَبِعَ النبيَّ ﷺ، وَسَارَ عَلَى دَرْبِهِ، وقَدْ ذَكَرَهُ النبيُّ ﷺ بِمَا هُوَ فِيه، فَمَدَحَهُ، وَأَرْسَلَ إليْهِ أصْحَابَهُ مُهَاجِرِينَ، وقال لهم: «**إنَّ بأرضِ الحبشةِ مَلِكًا لا يُظلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**»[1]، وهو قَائِمٌ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ عَلَى قَدمِ الصدقِ مُتَابِعًا للنبيِّ الحقِّ ﷺ، وَكَانَ مُسْلِمًا، حَتَّى إِنَّهُ تَوَلَّى عَقْدَ وَاحِدَةٍ مِنْ أُمَّهَاتِ المؤمنينَ[2]، فكَانَ وَكِيلًا عَنِ النبيِّ ﷺ في تَزْوِيجهَا، وأرسلَ النبيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الأصْحَابِ مَنْ أَتَى بِهَا- رضي الله عنها[3]-.

(١) رواه ابن إسحاق من حديث أم سلمة- رضي الله عنها-، وقد صَرَّح بالسماع، والحديث بطوله في سيرة ابن هشام (ج١ ص ٣٤٣) (بتحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد). وحسَّنه الألباني رحمه الله في «صحيح السيرة النبوية» ص ١٧٤-١٨٠ (ط. المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن ١٤٢١هـ).

(٢) هي أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان- رضي الله عنها- وعن أبيها. وهي من بنات عمِّ النبي ﷺ، ليس من أزواجه من هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا أكثر صداقًا منها، عُقد له عليها في الحبشة، وأصدقها عنه النجاشيُّ أربعمائة دينار، وكان ذلك سنة (٦ هـ)، وكان عمرها يوم رجوعها المدينة: بضعٌ وثلاثون سنة. وقد روت عن النبي ﷺ خمسة وستين حديثًا كما قال الذهبي. وتوفيت- رضي الله عنها- سنة ٤٤هـ، وقيل: ٤٢هـ (لها ترجمة في: طبقات ابن سعد ١٠/ ٩٤-٩٨، والإصابة لابن حجر ٧/ ٦٥١، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٢١٨-٢٢٣).

(٣) راجع قصة زواج النبي ﷺ من أم حبيبة وهي بالحبشة: (طبقات ابن سعد ج١٠ ص٩٤-٩٦، والإصابة لابن حجر ٧/ ٦٥١-٦٥٣).

هَذَا الرَّجُلُ كَانَ مُسْلِمًا، ولَم يَسْتَطِعْ أَنْ يطبِّقَ دِينَ الإسْلامِ عَلَى مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَعَذَرَهُ النبيُّ ﷺ والعُلَمَاءُ أجمعُونَ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَاتَ مُسْلمًا أخًا للمُسْلِمينَ. ولَمَّا مَاتَ النَّجَاشِيُّ مَاتَ بِأرضٍ لا يَقُومُ فِيهَا أَحَدٌ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِ لأخِيهِ مِن بَعْدِ مَوْتِهِ، فَلَم يَقُمْ عَلَيْهِ أَحَدٌ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَامَ بِهِ عَلَى المُسْلِمِينَ الموحِّدينَ الذين قَضَوْا فَلَقَوا الله ربَّ العَالَمِينَ. وأمَّا النبيُّ ﷺ فأعلَمَهُ الله بِمَوتِهِ، فأَخْبَرَهم أنَّ أخَاهم النَّجَاشِيَّ ﷺ قَدْ قَضَى وَمَضَى، ثُمَّ قَامَ النبيُّ ﷺ فَصَفَّهُم فَصَلَّى عَلَيْهِ الجَنَازَةَ[1] وهُوَ بِمَوْضِعِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ، والنبيُّ بمدينتهِ ﷺ وعَلَى آلِهِ والصَّحَابَةِ أجْمَعِين. وَمَعَ ذَلِكَ لَم يستَطِعْ أَنْ يُطَبِّقَ الشَّرْعَ والدِّينَ والإسْلَامَ، وَلَا أَنْ يَفْرِضَهُ عَلَى مَنْ كَانَ هُنَالِكَ، وَعَذَرَهُ النبيُّ ﷺ، والرَّجُلُ كَانَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ السُّلْطَةِ فِي أُمَّتِهِ، وَمَع ذَلِكَ مَاتَ عَلَى هَذَا النَّحوِ، فَقَامَ عَلَيْهِ النبيُّ ﷺ مُصَلِّيًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ.

أَلَا إنَّ دِينَ الإسْلام العظيم مَبْنِيٌّ عَلَى العِلْمِ لَا جَهْلَ فِيه، وَلَكِنْ إذَا أعْجِبَ المرءُ بِنَفْسِهِ، وبِرَأْيِهِ، وإِذَا مَا افْتَرَقَتْ الأُمَّةُ عَلَى المَسَائِلِ العِلميَّة الكبيرةِ، فاجتهدَ كُلُّ سَفِيهٍ بِرَأيِهِ: صَارَتْ فَوْضَى لَا رَابِطَ لَهَا، وَصَارَتْ

(١) روى البخاري: كتاب الجنائز، باب «الصفوف على الجنازة» (رقم ١٣١٨) عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «نَعى النبيُّ ﷺ إلى أصحابه النجاشيَّ، ثم تقدم وخرج بهم إلى المصلَّى، فصَفُّوا خلفه، فكبّر أربعًا». وفي الباب (رقم ١٣٢٠) عن جابر ابن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «قال النبي ﷺ: **«قد تُوفي اليومَ رجلٌ صالح من الحَبش، فهَلُمَّ فصلُّوا عليه. قال: فصففنا، فصلى النبي ﷺ عليه ونحن صفوف»**. وفي كتاب المناقب، باب «موت النجاشي» (رقم ٣٨٧٧) عن جابر- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: **«مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصْحَمَة»**.

سَائِرَةً عَلَى غَيْرِ سَبيلٍ لا زِمَامَ لَهَا، ثُمَّ يَكُونُ مَا يَكونُ مِنَ الأَمْرِ المريج(١)؛ من الامتحانِ؛ مِنَ الفِتْنَةِ؛ مِنَ العرضِ عَلَى الكِير- كِيرِ الفِتنَةِ- نسألُ الله السلامةَ والعَافِية.

مَا لِي لَا أَرَى زَمَانًا إِلَّا بكَيْتُ مِنْهُ حَتَّى إذَا مَا انْقَضَى وَوَلَّى بكيْتُ عَلَيْهِ لِسُوءِ مَا يَأْتِي بِعَقِبِهِ، والأمرُ يسيرٌ؛ لأنَّ الله ربَّ العالمينَ فِي كُبْرَيَاتِ الأُمورِ، وَعِنْدَ حُلُولِ النَّوَازِلِ العِظَامِ لَمْ يَجْعَلْ لَنَا حَيْرَةً ولا اشْتِبَاهًا، وهذا الأمرُ واضِحٌ جدًّا، فَهَذَا دِينٌ كَامِلٌ شَامِلٌ رَبَّانِيٌّ مُحِيطٌ.

وأدلُّكَ على وسيلةٍ مِنَ الوَسَائلِ التي دَلَّنَا عَلَيهَا العلماءُ عليهم الرحمة؛ لأنَّ العلماءَ من المحققينَ العارفينَ بأسرارِ شريعةِ ربِّ العالمينَ يقولون: «**إنَّ التوفيقَ ألَّا يَكِلَكَ اللهُ إِلَى نَفْسِكَ، وإنَّ الخِذْلانَ أنْ يَكِلَكَ اللهُ إِلَى نَفْسِكَ**». وَخُذْ بِهَذَا المَثَلِ: فَإِنَّهُ صَارَ مَثَلًا مَضْرُوبًا عَلَى تَتَابُعِ الأجيالِ: لَمَّا وَسْوَسَ شيطانُ الإنسِ فِي صدرِ المأمونِ الخليفةِ العبَّاسِيِّ(٢) بأنْ يحملَ النَّاسَ من

(١) المَرَجُ: الفتنة، والفساد، والخَلْط. والأمر المريج: القَلِق، الملتوي، الأعوج. ومَرَجَ الأمرُ مَرجًا فهو مارِجٌ وَمَرِيج: التبس واختلط. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] في أمر مختلف، ملتبس عليهم (لسان العرب: مرج).

(٢) المأمون، هو: عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي. بويع بالخلافة في أول سنة ١٩٨هـ، وتوفي في رجب سنة ٢١٨هـ. وكان من رجال بني العباس، حزمًا وعزمًا ورأيًا وهيبةً، فصيحًا، مُفوّهًا، جَوَادًا، مُحبًّا للعفو. وقد دعا إلى القول بخلق القرآن، وبالغ، بل حمل الناس على هذا الرأي الفاسد بالقوة والإكراه، وامتحن العلماء سنة ٢١٨هـ، وشدَّد عليهم، وكتب بذلك كتابًا إلى عماله وولاته في الآفاق، لكن الله تعالى لم يُمْهله، فمات في العام نفسه، وكان قد أوصى بالخلافة لأخيه المعتصم، وفي وصيته القول بخلق القرآن، فلم يتب من ذلك، بل مات عليه ولم يرجع، بل أوصى أخاه بأن يواصل الدعوة إلى هذا القول. =

بعدِ مَا حَمَلَ النفسَ عَلَيْهِ، أنْ يحملَ عَلَى القولِ بِخَلْقِ القرآنِ حتَّى يصيرَ عقيدةَ الدولةِ، واستجلبَ العلماءَ مِن هَاهُنَا وهنالكَ، ووقعَ مَنْ وَقَعَ صريعًا فِي أثْنَاءِ سيرهِ، وظَلَّ مَنْ ظَلَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السجنِ حبيسًا حتَّى أتاهُ أَجَلُهُ، منهم أبو يَعْقُوب البُوَيْطِيُّ تلميذُ الشافعيِّ وصاحِبهُ(١)، مَازَالَ فِي أقيادِهِ، فِي قُيودِهِ وحَدِيدِهِ حَتَّى توفَّاهُ اللهُ ربُّ العالمينَ في سِجْنِه؛ لأنَّهُ لم يَقُلْ بأنَّ القرآن مخلوقٌ(٢).

عقيدةٌ فلسفيَّةٌ تأتي بها عقولٌ غربيَّةٌ أتتْ وأُتيتْ من قِبلِ الفلسفةِ الغربيَّة

= (راجع ترجمته في: تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣، وتاريخ الطبري ٨/ ٤٧٨، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٢-٢٩٠).

(١) هو أبو يعقوب: يوسف بن يحيى، المصري، البُوَيْطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مدةً، وتخرج به، وفاق الأقران، وصفه الذهبي بقوله: «الإمام العلامة، سيد الفقهاء، وكان إمامًا في العلم، قدوةً في العمل، زاهدًا، متهجدًا، ربانيًا». وقال عنه الشافعي: «ليس في أصحابي أحدٌ أعلمَ من البُوَيْطي». وقال الربيع بن سليمان - وهو من أصحاب الشافعي-: «ما أبصرتُ أحدًا أنْزَعَ بحُجَةٍ في كتاب الله من البُويْطي». وكان قد سُعي به إلى الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) ليُمتحن في القول بخلق القرآن، فأبى، وثبت على الحق، والتزم السُّنَّة، فحُبِس مقيَّدًا، ثم مات في قيده مسجونًا سنة (٢٣١هـ) (من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/ ٢٩٩-٣٠٣، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١٦٢-١٧٠، تهذيب التهذيب لابن حجر ١١/ ٤٢٧-٤٢٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ٥٨-٦١).

(٢) قال الربيع بن سليمان: «رأيت (البويطي) على بَغْلٍ، في عُنُقه غُلٌّ، وفي رجليه قَيْد، وبينه وبين الغُل سِلسلة فيها لَبِنَةٌ - أي: طُوبة - وزنها أربعون رطلًا، وهو يقول: إنما خلق الله الخَلْق بـ «كُنْ»، فإذا كانت مخلوقة فكأنَّ مخلوقًا خُلِق بمخلوق. ولئن أُدْخِلْتُ عليه لأَصْدُقَنَّه - يعني: الواثق- ولأموتَنَّ في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قومٌ في حديدهم» (تاريخ بغداد ١٤/ ٣٠٢، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٩).

التي لا يأتي منها إلَّا دَمَارٌ وهلاكٌ، وأرادَ الرجلُ بعدما اقتنعَ أن يحملَ الناسَ على ذلك حَملًا، وأمَّا العلماءُ فمنهم مَن وَافقَ تقيَّةً في ظاهرِ الأمرِ والمعتَقَدُ المعتَقَدُ. ومنهم مَنْ أصرَّ على رأيه: **كمحمد بْن نوح** الذي ماتَ في الطريق إلى المأمونِ، وقامَ عَلَيْهِ الإمامُ أحمدُ، رحمةُ اللهِ عَلَيْهِ، حَتَّى وَارَاهُ الترابَ وقَام عَلَى قَبْرِهِ. والبُوَيْطِيُّ أبو يعقوب يظلُّ في سجنهِ حتَّى يموتَ، وفي وصيَّته: «أنْ أُدْفَنَ ومعي بينَ كَفَنِي وجِلْدِي هَذِهِ السلاسلُ، حتى إذا ما بُعِثْتُ يَوْمَ القيامةِ جئتُ بِهَا في الموقفِ أقولُ: «يارب! سَلْ هَذَا لِمَ ظَلَمَنِي؟»».

الأصحابُ رضوانُ الله عليهم تبِعُوا النبيَّ ﷺ، فأدَّوا الأمانةَ كاملةً من غيرِ ما نُقصَان. والنبيُّ ﷺ بَلَّغ البلاغَ الكاملَ عن رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَمازَالَ النَّاسُ يتتابَعُونَ عَلَى التي هِيَ أحسنُ، حتَّى جَاءَ مَنْ يريدُ أنْ يَحملَهم علَى التي هيَ أسوأ، وهيهاتَ، فإنَّهُ دِينُ اللهِ ربِّ العالَمِينَ، واللهُ حافظٌ دِينَه.

قامَ **الواثقُ**(١) يومًا **لأحمد بْن نصرِ الخُزاعِيِّ**(٢) وهو يأبى أنْ يقولَ: إنَّ

---

(١) هو الخليفة العباسي أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور. ولي الخلافة بعهد من أبيه سنة ٢٢٧هـ، وكانت وفاته في ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ. استولى عليه قاضيه «أحمد بن أبي دُؤاد» وحمله على التشدد في «المحنة» والدعاء إلى القول بخلق القرآن، اعتمادًا على ما كان عليه أبوه المعتصم، وعمه المأمون، من غير دليل ولا برهان، ولا حجة ولا بيان، ولا سنة ولا قرآن. ويقال: إنه رجع عن ذلك قُبيل موته (من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد ج١٤ ص ١٥، تاريخ الطبري ج٩ ص ١٢٣، سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٣٠٦).

(٢) أحمد بن نصر بن مالك بن الهَيْثم، أبو عبد الله الخزاعيُّ المَرْوَزِيُّ، ثم البغدادي. كان من أهل العلم والديانة والعمل الصالح، ومن الأئمة العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله =

القرآنَ مخلوقٌ، فقامَ إليْهِ بسَيفِهِ فَبَقَرَ بَطنَهُ وَضَرَبَهُ على عَاتِقِه، ثمَّ أمرَ بفَصْلِ رأسِهِ عَن جَسَدِهِ، وعُلِّقَ الرأسُ علَى إحدى ضَفَّتَيْ نَهرِ دجلةَ، وكذلكَ الجسدُ على الضفَّةِ المقابلةِ، وظلَّ كذلكَ سنواتٍ حتَّى أمرَ **المتوكِّلُ الخليفةُ العباسيُّ** [1] الذي جَاءَ من بعدُ، فعادَ إلى السُّنَّةِ عَوْدًا صحيحًا حميدًا، فأمرَ بإنزالِ الرأسِ والجَسَدِ، وبمواراةِ هذَا الجَسَدِ الشريفِ الترابَ. وكَانَ الحَرَسُ يتناوبون على حِرَاسةِ الرأسِ والجَسَدِ مَعًا، ورُوِيَ عن بعضهم قوله: «كُنَّا نسمعُهُ فِي جوف الليالي يتلو كِتابَ اللهِ ربِّ العالمين»[2].

= مُنَزَّل غير مخلوق. وكان الخليفة الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن، فقام أحمد بن نصر الخزاعي يدعو إلى السُّنَّة، والتحذير من هذه البدعة، فلما أحضر بين يدي الواثق سأله عن القول بخلق القرآن، في حضرة القاضي أحمد بن أبي دؤاد وجماعة من الأعيان، فأجاب أحمد الخزاعي بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وثبت على ذلك، فقام الواثق بنفسه فقتله، ثم صُلب مقيدًا في «سامراء» - مقر الخليفة- ونُصِب رأسه أيامًا في الجانب الشرقي من بغداد. وكان ذلك (سنة ٢٣١هـ). وقد نعته الذهبي بـ «الإمام الكبير الشهيد». وذكره الإمام أحمد يومًا فقال: «رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لله، لقد جاد بنفسه لله» (من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد ٥/ ١٧٣-١٧٦، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٨٠-٨٥، البداية والنهاية ٥/ ٨٤٩-٨٥٣ ط: دار الغد العربي، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٦-١٦٩).

(١) هو الخليفة المتوكل على الله: أبو الفضل جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون بن المهدي بن المنصور، القرشي العباسي. مولده (سنة ٢٠٥هـ)، وبويع بالخلافة عند موت أخيه الواثق في ذي الحجة (٢٣٢هـ). وبعد ذلك بسنتين أظهر السُّنَّة، وزجَر عن القول بخلق القرآن، ورفع المحنة، وأكرم الإمام أحمد بن حنبل إكرامًا زائدًا. توفي مقتولًا سنة ٢٤٧هـ. (من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد ٧/ ١٦٥-١٧٢، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٠-٤١، البداية والنهاية ٥/ ٩١١-٩١٤، ط دار الغد العربي).

(٢) قال الذهبي في (سير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٨ - وراجع: تاريخ بغداد ٥/ ١٧٩):=

محنةٌ أَزَّ(١) بِهَا الشيطانُ في صدرِ المأمون ووسوسَ بِهَا إِليْهِ، ثُمَّ هَلَكَ، وَجَاءَ المعتصمُ فامتُحِنَ أحمدُ، فَضُرِبَ حَتَّى أُغْشِيَ عَلَيْهِ، ودِيسَ بالأقْدَامِ جيئةً وذُهُوبًا، ثُمَّ أُمِرَ بأَنْ يَلْزَمَ بيتَهُ فلا يخرجُ، فلا جُمْعَةَ ولا جَمَاعَة، ومَنْ ذَهَبَ إلى هُنَالِكَ اعْتُقِلَ، ومَا زَالَ الأمرُ يسيرُ حتَّى جاءَ الواثقُ(٢).

وأمَّا المهتدي باللهِ(٣) فإنَّهُ كَانَ يومًا في مجلسِ العَدْلِ- في مجلسِ القضاءِ- تُعْرَضُ عليْه قصصُ المتظلِّمين فيسمعُهَا إلى آخِرِهَا، ثمَّ يَقْضِي فيها بتواقيعهِ ثُمَّ يختمُ بَعْدَ ذلك بِختمِهِ، ويدفعُ إلى صاحبِه- إلى السلطة

= «نُقِل عن الموكَّلِ بالرأس أنه سمعه بالليل يقرأ ﴿يسٓ﴾. وصح أنهم أقعدوا رجلًا معه قصبَة، فكانت الريحُ تدير الرأس إلى القبلة، فيُديرُه الرجل. وقال السراج: سَمِعت خلف بن سالم يقول - بعدما قتل ابن نصر، وقيل له: ألا تسمع ما الناس فيه يقولون: إن رأس أحمد بن نصر يقرأ؟ فقال: كان رأس يحيى يقرأ» (اهـ). وراجع قصة مقتل أحمد بن نصر الخزاعي في: (البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٨٥١-٨٥٢، وسيرأعلام النبلاء للذهبي ١١/ ١٦٧-١٦٨).

(١) سبق معناها (ص ٢٧).

(٢) راجع تفاصيل المحنة التي عاشها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الفرج ابن الجوزي، من الباب السادس والستين، إلى السابع والسبعين ص ٤١٦-٥٤٩ (ط. دار هاجر، القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م). وقد اختصر الحافظ ابن كثير قصة المحنة في البداية والنهاية ج٥ ص ٨٨٧-٨٩٢ (ط. دار الغد العربي).

(٣) هو أمير المؤمنين المهتدي بالله: أبو إسحاق محمد بن الواثق هارون بن المعتصم محمد بن هارون الرشيد، بويع بالخلافة في رجب (سنة ٢٥٥هـ). كان ورعًا عادلًا، صالحًا، مُتعبدًا، بطلًا شجاعًا، قويًّا في أمر الله، لكنه لم يجد معينًا ولا ناصرًا، وكان يحب الاقتداء بسيرة عمر بن عبد العزيز في الورع والتقشف وشدة الاحتياط، ويترحم على الإمام أحمد بن حنبل، وقتل رحمه الله سنة ٢٥٦هـ، وكانت خلافته سنة إلا خمسة أيام (من مصادر ترجمته: تاريخ الطبري ٩/ ٣٥٦-٣٥٩، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٣٥-٥٤٠، البداية والنهاية ٦/ ٣٠-٣٢ ط: دار الغد العربي).

التنفيذيَّة- من أجلِ التنفيذِ. وكان صالحُ بن عَليّ بن يعقوب بن المنصور الهاشِميُّ جالِسًا هنالِكَ فَقَالَ: فَكُنتُ أنظرُ إلى الإمامِ مَتى ما تَشَاغلَ عَنِّي، فإذا لَحَظَنِي أغضَيْتُ، فإذا مَا تَشَاغَلَ عَنِّي نَظَرْتُ إليْهِ، فَعَلْتُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ. فَقَالَ: يا صالحُ: فَقُمْتُ قَائمًا، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ أميرَ المؤمنينَ قَالَ: فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ لِي؟ فَقُلْتُ: أَجَلْ يا أميرَ المؤمنينَ. فَلَمَّا انقضى المجلسُ- مجلسُ العدلِ والحُكْم - قَالَ لحاجِبِهِ: لا يَبْرَحَنَّ صالحٌ حَتَّى أرَاهُ. قَالَ: فَوَقَعَ بِي مَا وَقَعَ، وأَقْبَلَ بِي الأمرُ وأدْبَرَ، وخِفْتُهُ. قَالَ: ثُمَّ أَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فأثْنَيْتُ عَلَيْهِ بَعْدَمَا سَلَّمْتُ. فقَالَ: اجْلِسْ يَا صالحُ، أُحَدِّثُكَ بِمَا دَارَ فِي نَفسِكَ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي، أمْ تُحَدِّثُنِي أنتَ؟ فَقَالَ: قُلْتُ: حَدِّثْنِي يا أميرَ المؤمنينَ. قَالَ: قُلْتَ فِي نَفْسِكَ يا صالحُ: أيُّ إمام إمامُنَا لَوْ كَانَ لا يَأْخُذُ بعقيدةِ خَلْقِ القرآنِ؟ قُلْتُ: واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي إلَّا مَا قُلْتَ، حَفِظَكَ اللهُ وَرَعَاكَ. فَقَالَ: إنِّي مُحَدِّثُكَ يا صالحُ، إنَّ أَبِي- يعني الخليفةَ الواثِقَ باللهِ رحمهُ اللهُ وغَفرَ لَهُ- كَانَ قَدْ جَاءَهُ **أحمدُ بْنُ أَبِي دُؤادٍ القاضي**[1] (الذي كانَ

(١) هو: أحمد بن فرج بن حَريز، الإيادي، أبو عبد الله البصري، ثم البغدادي، المعروف بـ (أحمد بن أبي دؤاد». كان جهميًا معتزليًا، داعيةً لبدعة القول بخلق القرآن. وكان عدوًا للإمام أحمد بن حنبل، وإلْبًا عليه في المحنة، ومحرّضًا على قتله. كان على صلة بالمأمون، ثم ولي «قضاء القُضاة» للمعتصم، ثم للواثق، وحملهم على امتحان الناس بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى في الآخرة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وهو الذي كان يمتحن العلماء في زمانه. مولده سنة ١٦٠هـ. وتوفي بالفالج سنة ٢٤٠هـ، وقد صودرت أمواله في عهد الخليفة المتوكل على الله (من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد ١٤/ ١٤١-١٥٦، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٩-١٧١، البداية والنهاية ٥/ ٨٧٠-٨٧٤ «ط: دار الغد العربي»، لسان الميزان لابن حجر ١/ ١٧١).

خَصْمًا لأهلِ السُّنَّةِ عَدوًّا للإمام أحمدَ، وضُرِبَ الإمامُ أحمدُ بمعرفتهِ وعِلْمِهِ وتحتَ ناظِرِيهِ حتى أُغْشِيَ عَلَيْهِ، بَلْ كَانَ يَقُولُ مَعَ السفهاءِ للمعتصمِ في مجلسِ الضربِ: يا أميرَ المؤمنين اقْتُلهُ ودمُهُ في رَقَبَتِي. لا حَولَ ولا قُوَّة إلَّا باللهِ العليِّ العظيم)... وجاء ومعه رجلٌ حَسَنُ الشيبةِ، تَامُّ الخِلْقَةِ، حَسَنُ الطَّلْعَةِ، فدخل يَرْسُفُ فِي قُيودِهِ[1] حَتَّى كَانَ بَيْنَ يَدَي الخليفةِ الواثقِ، فسلَّمَ وَدَعَا، فَأَحْسَنَ وأوجَزَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ الواثِقُ: يا شيخُ[2]، نَاظِرْ أحمدَ بْنَ أبي دُؤَاد. فَقَالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ أحمدَ ابنَ أبي دُؤاد (وهو قاضي قضاة الواثق، وأعلى سلطة في مثل هذهِ المسائلِ في الدولة في ذلك الوقت) يَضْعُفُ ويقلُّ عندَ المناظَرةِ. قَالَ المهتدي: وكانَ أبي- يعني الواثقَ- قد رقَّ للشيخِ رقَّةً شديدةً، ورأفَ بِهِ رأفَةً عظيمة، فَلمَّا قَالَ هَذَا القولَ انقلبتْ رأفَتُهُ غضبًا، وانقلبَ رضاهُ سُخْطًا. قَالَ الرجل: هوِّن عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ وسترى. وأقبلَ الشيخُ على أحمدَ بْنِ أبي دُؤَادٍ، فقال: يا أحمدُ، بَلِّغْنِي ما الذي تدعوني إليْهِ؟ قَال: أدعوكَ كَمَا أدعو الناسَ إلى الشهادةِ؛ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ. قالَ: يا أحمدُ، خبِّرني- ويا أميرَ المؤمنينَ: فلْتُحصِ عليَّ وعليْهِ لفظه- يا أحمدُ: أخبرني: أهذَا الذي جِئتَ بِهِ وقُلْتَهُ ودعوتَنِي إليْهِ أمرٌ واجبٌ حتمٌ في الدِّينِ، لا يَكْمُلُ الدِّينُ إلَّا بِهِ؟ فَقَالَ: نَعم. قَالَ: وَهَذَا الأمرُ الحَتْمُ

---

(١) رَسَفَ، يَرْسُفُ، رَسْفًا: يمشي في القيد رويدًا. والرَّسِيفُ: مَشْيُ المقيَّد إذا جاء، يتحامل برِجْلِهِ مع القَيْد (لسان العرب: رسف).

(٢) كان هذا الرجل من أهل «أَذَنَة» وهي بلد من الثغور، قرب المِصِّيصة، شمالي الشام (معجم الأدباء ج١ ص ١٣٣). ويُقال: هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن إسحاق الأذرمي، نزيل بغداد (تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٨).

الواجبُ الذي لا يَكْمُلُ الدِّينُ إلَّا بِهِ عَلِمَهُ محمدٌ ﷺ أم لم يَعْلَمْه؟ قال ابن أبي دُؤادٍ: علمه محمدٌ ﷺ. قال الرجل: فبَلَّغَهُ بَعْدَمَا عَلِمَهُ للأمَّةِ أمْ لم يُبَلِّغْه؟ فَسَكَتَ أحمدُ بْنُ أبي دُؤاد. فَقَالَ: أجِبْنِي يا أحمدُ. فلم يُجِبْهُ. قَالَ: واحدةٌ يا أميرَ المؤمنين. قَالَ: واحدة.

ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: هَذَا الذي تقولُهُ يا أحمدُ ممَّا يَكْمُلُ بِهِ الدِّين؟ قَالَ: نعم. قَالَ: وعَدَمُ القولِ بِهِ نُقْصَانٌ فِي الدِّين؟ قَالَ: نعم. قَالَ: أُصدِّقُكَ أمْ أصدِّق الله ربَّ العالمين؟ والله ربُّ العالمينَ يقولُ في كتابه العظيم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، أفالله ربُّ العالمينَ هو الصادقُ فيما يقولُ أمْ أنتَ يا ابْنَ أبي دُؤاد؟ أجْبني. فسكت، قَالَ: أجِبْني. فظلَّ سَاكِتًا. فَقَالَ: ثانيةٌ يا أميرَ المؤمنين. قَال: ثانية.

ثُمَّ أقْبَلَ الرجل على ابنِ أبي دُؤاد، فقَالَ لَهُ: هَذَا الذي عَلِمَهُ النبيُّ ﷺ وَسِعَهُ السكوتُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعم. قَالَ: وَوَسِعَ السكوتُ عَلَيْهِ أبا بكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمَانَ وعليًا؟ قَالَ: نعم، قَالَ: يا أحمدُ، أفَيَتَّسِعُ السكوتُ للرسولِ ﷺ، ويتَّسِعُ للخلفاءِ الأربعةِ، ولا يتَّسِعُ لَنَا؟ فسكت. قالَ: أجِبْني. فَظَلَّ سَاكِتًا. قَالَ: ثالثةٌ يا أميرَ المؤمنين. قَالَ: ثالثة.

ثُمَّ أقبلَ الرجلُ على أميرِ المؤمنينَ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ أمرًا وَسِعَ النبيَّ ﷺ وأبَا بكرٍ وعُمَر وعثمانَ وعليًا السكوتُ عَلَيْهِ، إنْ لَم يتَّسِعْ لَنَا فلا وَسَّعَ الله عَلَى مَنْ لم يتَّسِعْ لَهُ أمرُ رسولِ اللهِ ﷺ. قَالَ الواثقُ: نَعَمْ، لا وسَّع الله عَلَى مَنْ لم يتَّسِعْ أمرُهُ لِمَا اتَّسَعَ لَهُ أمرُ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ أَمَرَ الواثق بِضَرْبِ قيودِهِ، فَلَمَّا حُلَّتْ أهْوَى إلى سلاسِلِهِ فَجَاذَبَ وَنَازَعَ عليها، فأقبلَ عَلَيْهِ الواثقُ فَقَالَ: لِمَ تُنَازِعُ عليها؟ قَالَ: لأنِّي سأُبْلِغُ

وَصِيّي الذي يقومُ على أمرِي من بعدِ المماتِ أنْ يجعلَ هذِهِ السلاسلَ والأغلالَ بينَ جِلْدِي وكَفَنِي، حتّى آتِي يومَ القيامةِ فأسألَ الله ربَّ العالمينَ قائلًا: يارب، سَلْ أحمدَ بْنَ أبي دُؤادٍ: لِمَ فَزَّعَنِي وروَّع أَهْلِي، ولِمَ اعتقلَنِي، وأخْرَجَنِي مِن دَارِي؟ ثُمَّ بَكَى الرجلُ، فَبَكَى الواثقُ، وبَكَيْنَا.

يقولُ المهتدِي بالله الخليفة: فَقَالَ الواثقُ للرجلِ: لِي عندَك حاجة، قَالَ: وَما هِيَ؟ قَالَ: أَنْ تظلَّ عِنْدَنَا، فيتعلَّمَ فتيانُنَا منك. فَقَالَ: يا أمير المؤمنينَ، أنْ أرجعَ إلى أهلي وبناتِي أحبُّ إليّ. قَالَ: ولِمَ؟ قَال: حتى أَكُفَّهم عن الدعاءِ عليْكَ، فإنِّي واللهِ قد تركْتُهم في حالةٍ من الدِعاءِ عليْك تتفتَّحُ لها أبوابُ الطباقِ السَّبْعِ. قَالَ: اجعلْنِي في حِلٍّ. قَالَ: واللهِ يا أميرَ المؤمنين لقد جعلْتُكَ من أوَّلِ هَذَا الأمرِ في حِلٍّ، لقرابتكَ من رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولكنْ هَذَا ... فَهَذَا خَصْمِي[1]. فحلَّ قيودَهُ وأرادَ أنْ يُعطِيَهُ، فَقَال: أنا أحيا في غِنًى، وفِي غيرِ حاجةٍ. ثُمَّ قَالَ: سَلْنِي حاجَتك. قَالَ: أنْ تأذنَ لِي بالرجوع إلى أهْلِي. فَمَضَى الرجلُ[2].

فانظرْ كيفَ حُلَّت المُعْضِلةُ؟ وانظرْ كيفَ عَادَ الواثقُ إلى السبيلِ الحقِّ؟ انظرْ كيفَ انمحتْ هَذِهِ الضبابةُ، وكيفَ زَالتْ هَذِهِ الغمامةُ؟ وكيف اتَّضَحَ السبيلُ بأمرٍ يسيرٍ جدًّا؟

---

(١) يشير الرجل إلى أحمد بن أبي دُؤادٍ.

(٢) القصة ذكرها الخطيب البغدادي مُطوّلةً في «تاريخ بغداد» ترجمة «عبد الله بن محمد ابن إسحاق، أبو عبد الرحمن الأزدي» ج١٠ ص ٧٤-٧٨ (رقم ٥١٨٩). وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (ج٥ ص ٧٨٣- ط. دار الغد العربي)- بعد أن ساق القصة مختصرة - «في الإسناد بعضُ من لا يُعرف».

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وأنت تدَّعِي أنَّ ما جِئتَ بِهِ يكمِّلُ الدِّينَ، وليسَ منه، أَنُصدِّقُك أم نُصَدِّق الله ربَّ العالمين؟ وحتى ولو كان مما يَكْمُلُ بِهِ الدِّينُ- وحاشَا وكلَّا- واتَّسَعَ الأمرُ للنبيِّ ﷺ وللأصحابِ حتَّى سَكَتُوا: أفتتكلَّمُ أنت؟

إنَّ الجَهَلَةَ إذَا مَا تَكَلَّمُوا وَقَعَ النَّاسُ في أمرِ عظيم، وأمَّا أهلُ العِلْمِ إذَا مَا تَقَدَّمُوا كَانَ النَّاسُ عَلَى السَّبِيلِ المستقيم.

إنَّ الله ربَّ العالمينَ لا يُؤتِي هَذِهِ الأمَّةَ إلَّا خيرًا، حَتَّى فِي فِتْنَتِهَا وَمِحْنَتِهَا، يُمَحِّصُ الله ربُّ العالمينَ الصُّدُورَ. ولكنْ ينبغي عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ آخذينَ بِأَسْبَابِ ربِّنَا فِي أَرْضِهِ، وأَنْ نَكُونَ مُتَوقِّينَ أن يَزِلَّ قَدمُ الواحِدِ مِنَّا فِي فَتنةٍ تأكلُ الأخْضَرَ واليابسَ؛ . . . فتنةٍ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ؛ . . . فتنةٍ تجعلُ الأمرَ بعدَ أنْ كَانَ الأذانُ والجماعاتُ فيهِ في علوٍّ من غيرِ ما معاكسةٍ ولا معارَضةٍ يتمُّ بعدَ ذلكَ على اسْتِخْفَاءٍ. وما هذا الأمرُ منكم ببعيدٍ.

والعظيمُ في أمرِ نفسهِ هو المتَّبعُ لأمرِ ربِّهِ. والذي كتبَ الله ربُّ العالمينَ لَهُ السعادةَ هو الذي يتَّعِظُ بِمَا وَقَعَ بِغَيْرِهِ، ويتعلَّمُ مِن تَجَاربِ سِوَاهُ، وأمَّا الذي لا يتعلَّمُ إلَّا مِن تجاربه فذلكم الحيوانُ. والله ربُّ العالمينَ كَرَّمَ الإنسانَ.

فَهَذِهِ الجَزَائرُ تَرْتَعُ فِي بَحْرٍ من الدماءِ، ومَازَالت الفتنةُ قائمةً، وكانَ الأمرُ قَبْلَ أنْ يخرجَ الثوَّار بثورتهم، وقبلَ أنْ تُحَرِّكَ الجموعُ الطائشة، من أجلِ أنْ تَأتِيَ على الأخضرِ واليابسِ، تُعَانِدُ فَتُعانَدُ، وَتُقَاوِمُ فَتُقَاوِم حَتَّى دُمِّرت البلدُ تَدْمِيرًا.

هَذِهِ الجزائرُ كَانتْ المساجدُ- على وَصْفِ الواصِفينَ- لا يستطيعُ المرءُ فِي الصلاةِ أنْ يتورَّكَ فِيهَا في الصلواتِ المفروضات بعدمَا انتشرَ الخيرُ، وعَمَّ فِي البلادِ حَتَّى طَمَّ، ثُمَّ جَاءَتْ الفتنةُ الماحقةُ، فصارت المساجدُ تَصْفُرُ برياحهَا، ولا مُصَلِّيَ فيهَا، إلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ربُّ العالمينَ. . . فَمَاذَا حَصَّلْنَا؟ . . .قَبْضَ الرِّيح، هو قَبْضُ الرِّيح عِبَادَ اللهِ، أمْ قَبضةٌ مِن ذُبَابٍ؟

إنَّهُ ينبغي عَلَيْنَا أنْ نؤدِّيَ الذي عَلَيْنَا، وأنْ نسألَ اللهَ الذي لَنَا. ولَمَّا شَكَا إلى الحسنِ البَصْرِيِّ مَنْ شكَا جَوْرَ الولاةِ قَالَ له مُتَعَجِّبًا: إنَّ هَذَا الأمْرَ لا يأتَى مِن هَا هُنَا، وإنَّمَا يأتي من هَاهُنَا- وأشار إلى السماء-، وإنَّ هَذِهِ عقوبةٌ قد نَزَلَت عليكم، فَعُودُوا إلى اللهِ رَبِّ العالمينَ.

تُوبُوا إلى اللهِ واستغْفِروهُ، وسيرفعُ اللهُ ربُّ العالمينَ الكربَ.

عوُدُوا إلى اللهِ ربِّ العالمينَ، فإنَّ الذلَّ لا ينزعُهُ عَنَّا ربُّنَا جَلَّتْ قُدْرَتُهُ حتَّى تَرْجِعُوا إلى دينكم[١].

---

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» (رقم ٤٨٢٥)، وأبو داود في (سننه) كتاب البيوع، باب «النهي عن العِينة» (رقم ٣٤٦٢)، والبيهقي في «السنن» (٥/٣١٦) - وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة» (رقم ١١) عن ابن عمر- رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**». والعِينةُ: أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجّل ويسلّمه للمشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر الذي دفعه نقدًا (نقله الألباني عن شيخ الإسلام ابن تيمية). وذكر الألباني في تعليقه على الحديث- أن «تسليط الذل ليس هو لمجرد الزرع والحرث، بل لِما اقترن به من الإخلاد إليه، والانشغال به عن الجهاد في سبيل الله، فهذا هو المراد بالحديث. أما الزرع الذي لم يقترن به شيء من ذلك فهو المراد بالأحاديث المرغبة =

فاللهم أرْجِعْنَا إلى دِينِنَا رُجُوعًا حَمِيدًا.

اللهُمَّ خُذْ بأيدينا إليكَ، وأقْبِلْ بقُلُوبنا عَلَيْكَ. اللهُمَّ اهْدِنَا واهْدِ بِنَا وَاجْعَلْنَا سَبَبًا لِمَنْ اهْتَدَى. اللهُمَّ ثَبِّتْ أقْدَامَنَا، واهْدِ قُلُوبَنَا، وَبَيِّضْ وجُوهَنَا، وَثَقِّلْ مَوَازِيننا. اللهُمَّ اشرحْ صدورنَا، وأصْلِحْ بَالَنَا. اللهُمَّ أحْيِنَا مُسْلِمينَ، وتَوَفَّنَا مُؤمنينَ، وألْحِقْنَا بالصَّالحينَ. اللهُمَّ قِنَا وَقِ المسلمينَ أجمعينَ مُضِلَّاتِ الفتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. اللهُمَّ ارْزُقْنَا البَصِيرَةَ في الدينِ. اللهُمَّ ارْزُقْنَا الفَهمَ فِي الدِّين. اللهُمَّ ارْزُقْنَا بَرْدَ اليقينِ وحلاوةَ الإيمانِ يا أكْرَمَ الأكْرَمينَ. اللهُمَّ اهْدِنَا، واهْدِ بِنَا، واجْعَلْنَا سَبَبًا لِمَن اهْتَدَى. ربَّنَا لا تُؤَاخِذْنا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا. اللهُمَّ خُذْ بأيدينا إليك، وأقبِلْ بقلوبِنَا عَلَيْكَ، وأحْسِنْ خِتَامَنَا أجمعين. اللهُمَّ سَلِّمْ وَطَنَنَا وجميع أوطانِ المسلمينَ من مُضِلَّاتِ الفتنِ، مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ، ورُدَّ المسلمينَ أجمعينَ- حُكَّامًا ومحكومينَ- إلى الدِّينِ ردًّا جميلًا. اللهُمَّ ألِّفْ بينَ قلوبِ المسلمين؛ حُكَّامًا ومحكومينَ. اللهُمَّ صُنْ جميعَ عَواصِمِ المسلمينَ، واحفظ جميعَ أرضِ المسلمين. اللهُمَّ اسْتُرْ عَوراتِ المسلمينَ، وآمِنْ رَوْعَاتِ المسلمين، واحقنْ دماءَ المسلمينَ. اللهُمَّ احقنْ دماءَ المسلمين. اللهُمَّ هَيِّئْ لهذِهِ الأمَّةِ أمرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فيهِ أهلُ الطاعةِ، ويُذَلُّ فيهِ أهلُ المعصيةِ، وَيُقضَى فيهِ بكتَابِكَ وسُنَّةِ نَبيّك ﷺ. اللهُمَّ اجْمَعْ شَمْلَ المسلمين، ووحِّدْ صفوفَ المسلمينَ، وأعْلِ رَايةَ المسلمين، ونكِّسْ راياتِ الكَافِرينَ. اللهُمَّ إنَّ الأرضَ قَدْ ضَاقَتْ عَلَى

= في الحرث، فلا تعارض بينهما ولا إشكال» (انتهى من السلسلة الصحيحة ١/ ٤٤) وراجع رسالة للشيخ محمد سعيد رسلان بعنوان: «التصفية والتربية»، فله فيها- على الحديث- تعليق جيد.

المُسْلِمينَ بِمَا رَحُبَتْ، فَاجْعَل للمسلمين فَرَجًا وَمَخْرَجًا. يَا مَن لا تَرُدُّ سَائلًا، اجعلْ للمسلمين فَرَجًا وَمَخْرَجًا. وصلَّى اللهُ على نبيِّنَا محمدٍ ﷺ.



الفهـــرس

